فَصْلٌ

رد دعوى النصارى أن المسلمين يقولون: إن التحريف وقع بعد بعث النبي محمد ﷺ

فَقَالَ الحَاكِي عَنْهُمْ: فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ التَّبْدِيلَ وَالتَّغْيِيرَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ هَذَا القَوْلِ، فَقَالُوا: إِنَّا نَعْجَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ عَلَى عِلْمِهِمْ وَذَكَائِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ كَيْفَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْنَا بِمِثْلِ هَذَا القَوْلِ وَذَلِكَ أَنَّا أَيْضًا إِذَا احْتَجَجْنَا عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا القَوْلِ وَقُلْنَا: إِنَّ الكِتَابَ الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ يَوْمَنَا هَذَا قَدْ غَيَّرُوهُ وَبَدَّلُوهُ وَكَتَبُوا فِيهِ مَا أَرَادُوا وَاشْتَهَوْا هَلْ كَانُوا يُجَوِّزُونَ كَلَامَنَا؟ قَالَ الحَاكِي عَنْهُمْ: فَقُلْتُ لَهُمْ: هَذَا مِمَّا لَا يَجُوزُ وَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَقُولَهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ مِنْهُ إِلَى آخِرِ الفَصْلِ وَسَيَأْتِي بِأَلْفَاظٍ بَعْدَ هَذَا.

وَالجَوَابُ أَنَّ هَذَا السَّائِلَ النَّصْرَانِيَّ الَّذِي ذَكَرَ عَنِ المُسْلِمِينَ سُؤَالًا لَا يَقُولُونَهُ وَعَنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى جَوَابُهُ هُوَ وَهُمْ بَنَوْا كَلَامَهُمْ عَلَى أَصْلَيْنِ فَاسِدَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الرَّسُولَ ثَبَّتَ مَا مَعَهُمْ وَنَفَى عَنْ كُتُبِهِمُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمُ التُّهَمَ وَالتَّبْدِيلَ وَالتَّغْيِيرَ لَهَا وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا نَفَى التَّبْدِيلَ عَنْ لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا وَهَذَا مِمَّا يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَنْفِهِ عَنْهَا بَلِ النَّقْلُ المُتَوَاتِرُ عَنْهُ بِنَقِيضِ ذَلِكَ وَهُمْ أَيْضًا وَكُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ الكُتُبَ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ فِي تَفْسِيرِهَا مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالِاضْطِرَابِ بَيْنَ فِرَقِ النَّصَارَى وَبَيْنَ النَّصَارَى وَاليَهُودِ مَا يُوجِبُ القَطْعَ بِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مُبَدَّلٌ مُحَرَّفٌ وَكَذَلِكَ وَقَعَ فِي تَغْيِيرِ شَرَائِعِ هَذِهِ الكُتُبِ، فَإِنَّ الكُتُبَ تَضَمَّنَتْ أَصْلَيْنِ: الإِخْبَارَ وَالأَمْرَ. وَالإِيمَانُ بِهَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَصْدِيقِهَا فِيمَا أَخْبَرَتْ وَإِيجَابِ طَاعَتِهَا فِيمَا أَوْجَبَتْهُ.

وَأَهْلُ الكِتَابِ يُكَذِّبُونَ بِكَثِيرٍ مِمَّا أَخْبَرَتْ وَلَا يُوجِبُونَ طَاعَتَهَا فِي كَثِيرٍ مِمَّا أَوْجَبَتْهُ وَأَمَرَتْ بِهِ وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَشْهَدُ عَلَى الفِرْقَةِ الأُخْرَى بِمِثْلِ ذَلِكَ.

وَالنَّصَارَى لَهُمْ سَبْعُ مَجَامِعَ مَشْهُورَةٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ يَلْعَنُونَ طَائِفَةً مِنْهُمْ كَبِيرَةً وَيُكَفِّرُونَهُمْ وَيَقُولُونَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ كَذَّبُوا بِبَعْضِ مَا فِي تِلْكَ الكُتُبِ وَلَمْ يُوجِبُوا طَاعَةَ بَعْضِ أَمْرِهَا وَتِلْكَ الطَّائِفَةُ تَشْهَدُ عَلَى الأُخْرَى بِأَنَّهَا كَذَّبَتْ بِبَعْضِ مَا فِيهَا، ثُمَّ فِرَقُهُمُ الثَّلَاثَةُ المَشْهُورَةُ النَّسْطُورِيَّةُ وَالمَلَكِيَّةُ وَاليَعْقُوبِيَّةُ كُلُّ طَائِفَةٍ تُكَفِّرُ الأُخْرَى وَتَلْعَنُهَا وَتَشْهَدُ عَلَيْهَا أَنَّهَا مُكَذِّبَةٌ بِبَعْضِ مَا فِي النُّبُوَّاتِ غَيْرُ مُوجِبَةٍ لِطَاعَةِ بَعْضِ مَا فِيهَا بَلِ اخْتِلَافُهُمْ فِي نَفْسِ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ فَزَعَمَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ أَنَّ المَسِيحَ جَاءَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ وَالمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمِيعُ الرُّسُلِ بَرِيئُونَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا وَبَرِيئُونَ مِمَّنْ يَقُولُ عَلَى اللهِ غَيْرَ الحَقِّ أَوْ يَقُولُ عَلَى اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ وَبَرِيئُونَ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ بَاطِلٍ يُقَالُ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِنْ كَانَ قَائِلُهُ مُخْطِئًا لَمْ يَتَعَمَّدِ الكَذِبَ.

وَفِي مَقَالَاتِ النَّصَارَى مِنْ هَذِهِ الأَنْوَاعِ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ وَقَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جَمِيعَ الطَّوَائِفِ مِنَ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى يَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي هَذِهِ الكُتُبِ تَحْرِيفٌ وَتَبْدِيلٌ فِي مَعَانِيهَا وَتَفَاسِيرِهَا وَشَرَائِعِهَا فَهَذَا القَدْرُ كَافٍ وَهُمْ مِنْ حِينِ بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَارَ كُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ كَافِرًا بِخِلَافِ حَالِ النَّصَارَى قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ مُتَّبِعٌ لِدِينِ المَسِيحِ وَالمُسْلِمُونَ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ حَرَّفَ الدِّينَ وَبَدَّلَهُ فَجُمْهُورُهُمْ خَالَفُوا هَؤُلَاءِ فَلَا يَزَالُ فِيهِمْ طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَخَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ بِخِلَافِ النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ كَفَرُوا جَمِيعُهُمْ؛ كَمَا كَفَرَتِ اليَهُودُ بِتَكْذِيبِ المَسِيحِ.

وَالمُسْلِمُونَ يُثْبِتُونَ بِالدَّلَائِلِ الكَثِيرَةِ أَنَّهُمْ بَدَّلُوا مَعَانِيَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ نُبُوَّاتِ الأَنْبِيَاءِ وَابْتَدَعُوا شَرْعًا لَمْ يَأْتِ بِهِ المَسِيحُ وَلَا غَيْرُهُ وَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ مِثْلَ زَعْمِهِمْ أَنَّ جَمِيعَ بَنِي آدَمَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَغَيْرِهِمْ كَانُوا فِي الجَحِيمِ فِي حَبْسِ الشَّيْطَانِ لِأَجْلِ أَنَّ أَبَاهُمْ آدَمَ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا تَخَلَّصُوا مِنْ ذَلِكَ لَمَّا صُلِبَ المَسِيحُ.

فَإِنَّ هَذَا الكَلَامَ لَوْ نَقَلَهُ نَاقِلٌ عَنْ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ لَقَطَعْنَا بِكَذِبِهِ عَلَيْهِمْ فَكَيْفَ وَهَذَا الكَلَامُ لَيْسَ مَنْقُولًا عِنْدَهُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّمَا يَنْقُلُونَهُ عَمَّنْ لَيْسَ قَوْلُهُ حُجَّةً لَازِمَةً، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ دِينِهِمْ مَأْخُوذٌ عَنْ رُؤُوسِهِمُ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ.

فَإِذَا قَطَعْنَا بِكَذِبِ مَنْ يَنْقُلُهُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَنْقُلْهُ عَنْهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يُخْبِرُونَ النَّاسَ بِمَا تَقْصُرُ عُقُولُهُمْ عَنْ مَعْرِفَتِهِ لَا بِمَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ مُمْتَنِعٌ فَيُخْبِرُونَهُمْ بِمُحَيِّرَاتِ العُقُولِ لَا مُحَالَاتِ العُقُولِ وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنْ كَانَ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ فِي كُتُبِهِمْ مَا يَنْفِي تَوْبَتَهُ وَإِنَّمَا قَدْ يَقُولُ قَائِلُهُمْ إِنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّهُ تَابَ أَوْ لَيْسَ عِنْدَنَا تَوْبَتُهُ وَعَدَمُ العِلْمِ بِشَيْءٍ لَيْسَ عِلْمًا بِعَدَمِهِ وَعَدَمُ وُجُودِ الشَّيْءِ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللهِ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ فِي كِتَابٍ آخَرَ فَفِي التَّوْرَاةِ مَا لَيْسَ فِي الإِنْجِيلِ وَفِيهِمَا مَا لَيْسَ فِي الزَّبُورِ وَفِي الإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ مَا لَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ وَفِي سَائِرِ النُّبُوَّاتِ مَا لَا يُوجَدُ فِي هَذِهِ الكُتُبِ وَالقُرْآنُ لَوْ كَانَ دُونَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالنُّبُوَّاتِ أَوْ كَانَ مِثْلَهَا لَأَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهَا فَكَيْفَ إِذَا كَانَ أَفْضَلَ وَأَشْرَفَ وَفِيهِ مِنَ العِلْمِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فَضْلَهُ عَلَيْهِمَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ [الزمر: ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وَسَوَاءٌ تَابَ آدَمُ أَوْ لَمْ يَتُبْ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رُسُلُ اللهِ الَّذِينَ هُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ مَحْبُوسِينَ فِي حَبْسِ الشَّيْطَانِ فِي جَهَنَّمَ بِذَنْبِهِ؟ وَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ كَانَ أَبُوهُ كَافِرًا وَلَمْ يُؤَاخِذْهُ اللهُ بِذَنْبِهِ فَكَيْفَ يَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ فِي حَبْسِ الشَّيْطَانِ بِسَبَبِ ذَنْبِ أَبِيهِ الأَقْصَى آدَمَ؟ مَعَ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا وَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَأَغْرَقَ اللهُ أَهْلَ الأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ وَجَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ فَكَيْفَ يَكُونُ فِي جَهَنَّمَ فِي حَبْسِ الشَّيْطَانِ لِأَجْلِ ذَنْبِ آدَمَ؟.

وَمُوسَى بْنُ عِمْرَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا وَأَظْهَرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ البَرَاهِينِ وَالآيَاتِ مَا لَمْ يَظْهَرْ مِثْلُهُ عَلَى يَدَيِ المَسِيحِ وَقَتَلَ نَفْسًا لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا فَغَفَرَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ وَلَهُ مِنَ المَنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ وَالكَرَامَةِ مَا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ فَكَيْفَ يَكُونُ فِي جَهَنَّمَ فِي حَبْسِ الشَّيْطَانِ.

ثُمَّ أَيُّ مُنَاسَبَةٍ بَيْنَ الصَّلْبِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ سَوَاءً صَلَبُوا المَسِيحَ أَوِ المُشَبَّهَ بِهِ وَبَيْنَ تَخْلِيصِ هَؤُلَاءِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِالذُّرِّيَّةِ كَانَ ظَالِمًا مُعْتَدِيًا وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ قَادِرٌ عَلَى مَنْعِهِ مِنْ ظُلْمِهِمْ بَلْ وَعَلَى عُقُوبَتِهِ إِذَا لَمْ يَنْتَهِ عَنْ ظُلْمِهِمْ.

فَلِمَاذَا أَخَّرَ مَنْعَهُ مِنْ ظُلْمِهِمْ إِلَى زَمَنِ المَسِيحِ؟ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ وَهُمْ رُسُلُهُ الَّذِينَ نَصَرَهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ بَلْ أَهْلَكَ أَعْدَاءَهُمُ الَّذِينَ هُمْ جُنْدُ الشَّيْطَانِ فَكَيْفَ لَا يَمْنَعُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ أَنْ يَظْلِمَهُمْ وَيَجْعَلَ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَهَنَّمَ هَذَا إِنْ قُدِّرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ الشَّيْطَانَ بَعْدَ مَوْتِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَسُقُوطِ التَّكْلِيفِ عَنْهُمْ وَاسْتِحْقَاقِهِمْ كَرَامَتَهُ وَإِحْسَانَهُ وَجَنَّتَهُ بِحُكْمِ وَعْدِهِ وَمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ فَجَعَلَهُ مُسَلَّطًا عَلَى حَبْسِهِمْ فِي جَهَنَّمَ؟

وَإِنْ قَالُوا: الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مَا كَانَ يَقْدِرُ عَلَى تَخْلِيصِهِمْ مِنَ الشَّيْطَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ ظَالِمٌ مُعْتَدٍ عَلَيْهِمْ بَعْدَ المَوْتِ إِلَّا بِأَنْ يَحْتَالَ عَلَيْهِ بِإِخْفَاءِ نَفْسِهِ لِيَتَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ؛ كَمَا يَزْعُمُونَ فَهَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الكُفْرِ العَظِيمِ وَجَعْلِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ عَاجِزًا؛ كَمَا جَعَلُوهُ أَوَّلًا ظَالِمًا فِيهِ

مِـنَ التَّنَاقُضِ مَا يَقْتَـضِي عَظِيمَ جَهْلِهِمُ الَّذِي جَعَلُـوا بِهِ الرَّبَّ جَاهِلًا، فَإِنَّهُـمْ يَقُولُونَ أَنَّهُ احْتَالَ عَلَى الشَّـيْطَانِ لِيَأْخُذَهُ بِعَدْلٍ؛ كَمَا احْتَالَ الشَّـيْطَانُ عَلَى آدَمَ بِالحَيَّـةِ فَاخْتَفَى مِنْهُ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَنَّهُ نَاسُوتُ الإِلَهِ وَنَاسُوتُ الإِلَهِ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً قَطُّ بِخِلَافِ غَيْرِهِ.

فَلَمَّا أَرَادَ الشَّيْطَانُ أَخْذَ رُوحِهِ لِيَحْبِسَهُ فِي جَهَنَّمَ كَسَائِرِ مَنْ مَضَى وَهُوَ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً اسْتَحَقَّ الشَّيْطَانُ أَنْ يَأْخُذَهُ الرَّبُّ وَيُخَلِّصَ الذُّرِّيَّةَ مِنْ حَبْسِهِ.

وَهَذَا تَجْهِيلٌ مِنْهُمْ لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ مَعَ تَعْجِيزِهِ وَتَظْلِيمِهِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ هُوَ سَلَّطَ الشَّيْطَانَ عَلَى بَنِي آدَمَ كَمَا يَقُولُونَ. فَلَا فَرْقَ بَيْنَ نَاسُوتِ المَسِيحِ وَغَيْرِهِ إِذِ الجَمِيعُ بَنِي آدَمَ، وَأَيْضًا فَإِذَا قَدَّرَ أَنَّ النَّاسُـوتَ يَدْفَعُ الشَّـيْطَانَ عَنْ نَفْسِـهِ بِحَقٍّ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ أَنَّهُ دَخَلَ الجَحِيمَ وَأَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ.

فَيُقَالُ: إِنْ كَانَ تَسَلُّطُ الشَّيْطَانِ عَلَى حَبْسِهِمْ فِي الجَحِيمِ بِحَقٍّ لِأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ مَعَ ذَنْبِ أَبِيهِمْ لَمْ يَجُزْ إِخْرَاجُهُمْ لِأَجْلِ سَـلَامَةِ نَاسُـوتِ المَسِيحِ مِنَ الذَّنْبِ وَإِنْ كَانُوا مَظْلُومِينَ مَعَ الشَّيْطَانِ وَجَبَ تَخْلِيصُهُمْ قَبْلَ صَلْبِ النَّاسُوتِ وَلَمْ يَجُزْ تَأْخِيرُ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي مُجَرَّدِ سَلَامَةِ المَسِيحِ مِـنَ الذُّنُوبِ مَا يُوجِبُ سَـلَامَةَ غَيْرِهِ وَإِنْ قَالُـوا إِنَّهُ كَانَ بِدُونِ تَسَـلُّطِهِ عَلَى صَلْبِهِ عَاجِزًا عَنْ دَفْعِهِ فَهُوَ مَعَ تَسَلُّطِهِ عَلَى صَلْبِهِ أَعْجَزُ وَأَعْجَزُ.

الأَصْلُ الثَّانِي الفَاسِـدُ: الَّذِي بَنَوْا عَلَيْهِ سُـؤَالَهُمُ الَّذِي جَعَلُوهُ مِنْ جِهَةِ المُسْـلِمِينَ وَجَوَابُهُمْ ظَنُّهُمْ أَنَّ المُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الكُتُبَ حُرِّفَتْ أَلْفَاظُ جَمِيعِ النُّسَخِ المَوْجُودَةِ مِنْهَا بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَهَـذَا مِمَّا لَا يَقُولُهُ المُسْـلِمُونَ، وَلَكِنْ قَدْ يَقُولُ بَعْضُهُـمْ: أَنَّهُ حُرِّفَ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَلْفَاظُ بَعْضِ النُّسَـخِ، فَإِنَّ الجُمْهُورَ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ بَعْضَ أَلْفَاظِهَا حُرِّفَتْ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ كَانَ هَذَا قَبْلَ المَبْعَثِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ كَانَ بَعْدَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ الأَمْرَيْنِ أَوْ يُجَوِّزُهُمَا، وَلَكِنْ لَا يَقُولُ: إِنَّهُ حُرِّفَتْ أَلْفَاظُ جَمِيعِ النُّسَخِ المَوْجُودَةِ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، كَمَا حَكَاهُ هَذَا الحَاكِي عَنْهُمْ، وَلَكِنْ عُلَمَاءُ المُسْلِمِينَ وَعُلَمَاءُ أَهْلِ الكِتَابِ مُتَّفِقُونَ عَلَى وُقُوعِ التَّحْرِيفِ فِي المَعَانِي وَالتَّفْسِيرِ.

وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ تَزْعُمُ أَنَّ الأُخْرَى هِيَ الَّتِي حَرَّفَتِ المَعَانِيَ.

وَأَمَّا أَلْفَاظُ الكُتُبِ فَقَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ إِلَى أَنَّ أَلْفَاظَهَا لَمْ تُبَدَّلْ؛ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ.

وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ إِلَى أَنَّهُ بُدِّلَ بَعْضُ أَلْفَاظِهَا.

وَهَذَا مَشْهُورٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ وَقَالَهُ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ.

حَتَّى فِي صَلْبِ المَسِيحِ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا صُلِبَ الَّذِي شُبِّهَ بِالمَسِيحِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ القُرْآنُ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْبَرُوا بِصَلْبِهِ كَانُوا قَدْ أَخْبَرُوا بِظَاهِرِ الأَمْرِ، فَإِنَّهُ لَمَّا أُلْقِيَ شَبَهُهُ عَلَى المَصْلُوبِ ظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ المَسِيحُ أَوْ تَعَمَّدُوا الكَذِبَ، ثُمَّ هَؤُلَاءِ مِنْهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ فِي أَلْفَاظِ الكُتُبِ مَا هُوَ مُبَدَّلٌ.

وَفِيهِمْ مَنْ يَجْعَلُ المُبَدَّلَ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ كَثِيرًا مِنْهُمَا وَرُبَّمَا جَعَلَ بَعْضُهُمُ المُبَدَّلَ أَكْثَرَهُمَا لَا سِيَّمَا الإِنْجِيلُ، فَإِنَّ الطَّعْنَ فِيهِ أَكْثَرُ وَأَظْهَرُ مِنْهُ فِي التَّوْرَاةِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُسْرِفُ حَتَّى يَقُولَ: أَنَّهُ لَا حُرْمَةَ لِشَيْءٍ مِنْهُمَا بَلْ يَجُوزُ الِاسْتِنْجَاءُ بِهِمَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ الَّذِي بُدِّلَتْ أَلْفَاظُهُ قَلِيلٌ مِنْهُمَا وَهَذَا أَظْهَرُ.

وَالتَّبْدِيلُ فِي الإِنْجِيلِ أَظْهَرُ، بَلْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ هَذِهِ الأَنَاجِيلُ لَيْسَ فِيهَا مِنْ كَلَامِ اللهِ إِلَّا القَلِيلُ.

وَالإِنْجِيلُ الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللهِ لَيْسَ هُوَ هَذِهِ الأَنَاجِيلَ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ التَّوْرَاةَ الَّذِي بِأَيْدِي أَهْلِ الكِتَابِ فِيهَا مَا هُوَ حُكْمُ اللهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ بُدِّلَ وَغُيِّرَ بَعْضُ أَلْفَاظِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ [المَائِدَة: ٤١].

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ [المَائِدَة: ٤٣].

فَعُلِمَ أَنَّ التَّوْرَاةَ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً بَعْدَ خَرَابِ بَيْتِ المَقْدِسِ وَبَعْدَ مَجِيءِ بُخْتُنَصَّرَ وَبَعْدَ مَبْعَثِ المَسِيحِ وَبَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيهَا حُكْمُ اللهِ.

وَالتَّوْرَاةُ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ يَهُودِ المَدِينَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِنْ قِيلَ: أَنَّهُ غُيِّرَ بَعْضُ أَلْفَاظِهَا بَعْدَ مَبْعَثِهِ فَلَا نَشْهَدُ عَلَى كُلِّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذَا غَيْرُ مَعْلُومٍ لَنَا وَهُوَ أَيْضًا مُتَعَذِّرٌ بَلْ يُمْكِنُ تَغْيِيرُ كَثِيرٍ مِنَ النُّسَخِ وَإِشَاعَةُ ذَلِكَ عِنْدَ الأَتْبَاعِ حَتَّى لَا يُوجَدَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا غُيِّرَ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَعَ هَذَا فَكَثِيرٌ مِنْ نُسَخِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ مُتَّفِقَةٌ فِي الغَالِبِ إِنَّمَا تَخْتَلِفُ فِي اليَسِيرِ مِنْ أَلْفَاظِهَا فَتَبْدِيلُ أَلْفَاظِ اليَسِيرِ مِنَ النُّسَخِ بَعْدَ مَبْعَثِ الرَّسُولِ ﷺ مُمْكِنٌ لَا يُمْكِنُ أَحَدٌ أَنْ يَجْزِمَ بِنَفْيِهِ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنْ يَشْهَدَ بِأَنَّ كُلَّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ بِالكِتَابَيْنِ مُتَّفِقَةُ الأَلْفَاظِ إِذْ هَذَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَى عِلْمِهِ، وَالاِخْتِلَافُ اليَسِيرُ فِي أَلْفَاظِ هَذِهِ الكُتُبِ مَوْجُودٌ فِي الكَثِيرِ مِنَ النُّسَخِ، كَمَا قَدْ تَخْتَلِفُ نُسَخُ بَعْضِ كُتُبِ الحَدِيثِ أَوْ تُبَدَّلُ بَعْضُ أَلْفَاظِ بَعْضِ النُّسَخِ، وَهَذَا خِلَافُ القُرْآنِ المَجِيدِ الَّذِي حُفِظَتْ أَلْفَاظُهُ فِي الصُّدُورِ بِالنَّقْلِ المُتَوَاتِرِ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُحْفَظَ فِي كِتَابٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجْر: ٩].

وَذَلِكَ أَنَّ اليَهُودَ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى عَهْدِهِ وَبَعْدَهُ مُنْتَشِرُونَ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا وَعِنْدَهُمْ نُسَخٌ كَثِيرَةٌ مِنَ التَّوْرَاةِ.

وَكَذَلِكَ النَّصَارَى عِنْدَهُمْ نُسَخٌ كَثِيرَةٌ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ أَحَدٌ مِنْ جَمْعِ هَذِهِ النُّسَخِ وَتَبْدِيلِهَا وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مُمْكِنًا لَكَانَ هَذَا مِنَ الوَقَائِعِ العَظِيمَةِ الَّتِي تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهَا وَكَذَلِكَ فِي الإِنْجِيلِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [المَائِدَة: ٤٧].

فَعُلِمَ أَنَّ فِي هَذَا الإِنْجِيلِ حُكْمًا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى لَكِنَّ الحُكْمَ هُوَ مِنْ بَابِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ التَّغْيِيرُ فِي بَابِ الأَخْبَارِ وَهُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ التَّبْدِيلُ لَفْظًا وَأَمَّا الأَحْكَامُ الَّتِي فِي التَّوْرَاةِ فَمَا يَكَادُ أَحَدٌ يَدَّعِي التَّبْدِيلَ فِي أَلْفَاظِهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ طَائِفَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: فِي الإِنْجِيلِ ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ هُوَ خِطَابٌ لِمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ المَسِيحِ قَبْلَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ لَا المَوْجُودِينَ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَهَذَا القَوْلُ يُنَاسِبُ مُنَاسَبَةً ظَاهِرَةً لِقِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ كَقِرَاءَةِ حَمْزَةَ فَإِنَّ هَذِهِ لَامُ كَيْ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المَائِدَة: ٤٦-٤٧].

فَإِذَا قُرِئَ «وَلِيَحْكُمَ» كَانَ المَعْنَى وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ لِكَذَا وَكَذَا وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَهَذَا يُوجِبُ الحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي الإِنْجِيلِ الحَقِّ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإِنْجِيلَ المَوْجُودَ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ ﷺ هُوَ ذَلِكَ الإِنْجِيلُ.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ الجُمْهُورِ ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ ﴾ فَهُوَ أَمْرٌ بِذَلِكَ، فَمِنَ العُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: هُوَ أَمْرٌ لِمَنْ كَانَ الإِنْجِيلُ الحَقُّ مَوْجُودًا عِنْدَهُمْ أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلْيَحْكُمْ» أَمْرٌ لَهُمْ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا حَاجَةَ

إِلَى هَـذَا التَّكَلُّفِ[1]، فَإِنَّ القَوْلَ فِي الإِنْجِيلِ كَالقَـوْلِ فِي التَّوْرَاةِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٣ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ [المَائِدَة: ٤١-٤٦].

فَهَـذَا قَدْ صَرَّحَ بِأَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَحَاكَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اليَهُودِ عِنْدَهُمُ التَّـوْرَاةُ فِيهَـا حُكْمُ اللهِ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْ حُكْمِ اللهِ وَقَالَ: بَعْدَ ذَلِكَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا

(١) قـرأ حمـزة (وليحكم) بكـسر اللام، وفتح الميم، وقرأ الباقون بإسـكان اللام والميـم، وعلى القراءة الأولى ينصب الفعل (يحكم) على أن اللام لام كي وعلى قراءة الجمهور، اللام لام الأمر، والكلام مستأنف، والاختيار الجزم لأن الجماعة عليه، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله لأهل الإنجيل.

أَنْـزَلَ اللهُ فِيـهِ وَهَذِهِ لَامُ الأَمْرِ وَهُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ أَنْزَلَهُ عَلَى لِسَـانِ مُحَمَّـدٍ وَأَمْرُ مَنْ مَاتَ قَبْلَ هَـذَا الخِطَـابِ مُمْتَنِعٌ وَإِنَّمَا يَكُـونُ الأَمْرُ أَمْرًا لِمَنْ آمَنَ بِـهِ مِنْ بَعْدِ خِطَـابِ اللهِ لِعِبَادِهِ بِالأَمْرِ فَعُلِـمَ أَنَّـهُ أَمْرٌ لِمَـنْ كَانَ مَوْجُودًا حِينَئِـذٍ أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي الإِنْجِيـلِ، وَاللهُ أَنْزَلَ فِي الإِنْجِيـلِ الأَمْـرَ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ كَمَا أَمَرَ بِهِ فِي التَّـوْرَاةِ فَلْيَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي الإِنْجِيـلِ مِمَّا لَمْ يَنْسَـخْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ كَمَا أَمَـرَ أَهْلَ التَّوْرَاةِ أَنْ يَحْكُمُوا بِـمَا أَنْزَلَهُ مِمَّا لَمْ يَنْسَخْهُ المَسِيحُ وَمَا نَسَخَهُ فَقَدْ أُمِرُوا فِيهَا بِاتِّبَاعِ المَسِيحِ وَقَدْ أُمِرُوا فِي الإِنْجِيلِ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَـنْ حَكَـمَ مِنْ أَهْلِ الكِتَـابِ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِـمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا يُخَالِفُ حُكْمَ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذْ كَانُوا مَأْمُورِينَ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ كَـمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

فَجَعَـلَ القُـرْآنَ مُهَيْمِنًـا. وَالْمُهَيْمِـنُ الشَّـاهِدُ الحَاكِـمُ الْمُؤْتَمَنُ فَهُـوَ يَحْكُمُ بِـمَا فِيهَا مِمَّا لَمْ يَنْسَـخْهُ اللهُ وَيَشْـهَدُ بِتَصْدِيـقِ مَا فِيهَا مِمَّـا لَمْ يُبَدَّلْ وَلِهَذَا قَـالَ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّـنَنِ وَالمَسَـانِدِ هَذَا. فَفِي «الصَّحِيحَـيْنِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَـرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّـهُ قَالَ: إِنَّ اليَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ وَرَجُلًا زَنَيَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ**» قَالُـوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَـلَامٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَـا الرَّجْمَ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَـا فَوَضَـعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَـلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَـا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ

ابْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فَأَمَرَ بِهِمَا النَّبِيُّ ﷺ فَرُجِمَا[(١)].

وَأَخْرَجَ البُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ حَتَّى جَاءَ يَهُودَ فَقَالَ: «**مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَن زَنَى**» قَالُوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا وَيُطَافُ بِهِمَا قَالَ: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قَالَ: فَجَاءُوا بِهَا فَقَرَأُوهَا، حَتَّى إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ فَرَفَعَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ قَالُوا: صَدَقَ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، وَلَكِنَّا نَتَكَاتَمُهُ بَيْنَنَا، وَأَنَّ أَحْبَارَنَا أَحْدَثُوا التَّحْمِيمَ وَالتَّجْبِيَةَ فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرَجْمِهِمَا فَرُجِمَا[(٢)].

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مُرَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمٍ مَجْلُودٍ، فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: «**هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، فَدَعَى رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ: «**أَنْشُدُكَ اللهَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟**» قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الحَدَّ، فَقُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ**» فَأَمَرَ

---

(١) أخرجه أحمد [٤٤٩٨] وعبد الرزاق [١٣٣٣١]، [١٣٣٣٢] والحميدي [٦٩٦] والطيالسي [١٨٥٦] والبخاري [٧٥٤٣] ومسلم [١٦٩٩] وأبو داود [٤٤٤٩] والنسائي «كبرى» [٧٢١٣]، [٧٢١٤] والدارمي (٢/ ١٧٨-١٧٩) وابن الجارود [٨٢٢] والطبراني في «الكبير» [١٣٤٠٧] وابن حبان [٤٣٣٥] من طرق عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي الباب حديث ابن عباس، وابن أبي أوفى وجابر، والبراء، وغيرهم.

(٢) راجع التخريج السابق.

بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [المائدة: ٤١].

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إِلى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إلى ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

قَالَ: هِيَ فِي الكُفَّارِ كُلِّهَا(١).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: رَجَمَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمَ وَرَجُلًا مِنَ اليَهُودِ(٢).

وَأَمَّا السُّنَنُ فَفِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: أَتَى نَفَرٌ مِنَ اليَهُودِ فَدَعَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى القُفِّ فَأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ المِدْرَاسِ(٣) فَقَالُوا: يَا أَبَا القَاسِمِ إِنَّ رَجُلًا مِنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ، فَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وِسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْتُونِي التَّوْرَاةَ**» فَأُتِيَ بِهَا فَنَزَعَ الوِسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ وَوَضَعَ التَّوْرَاةَ عَلَيْهَا وَقَالَ: «**آمَنْتُ بِكِ وَبِمَنْ أَنْزَلَكِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**ائْتُونِي بِأَعْلَمِكُمْ**» فَأُتِيَ بِشَابٍّ، ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الرَّجْمِ(٤).

وَأَخْرَجَ أَيْضًا أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: زَنَى رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ بِامْرَأَةٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اذْهَبُوا بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ بُعِثَ بِالتَّخْفِيفِ، فَإِنْ أَفْتَانَا بِفُتْيَا دُونَ الرَّجْمِ قَبِلْنَاهَا وَاحْتَجَجْنَا بِهَا عِنْدَ اللهِ فَقُلْنَا: نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَائِكَ قَالُوا: فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالُوا: يَا أَبَا القَاسِمِ مَا تَرَى

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦) ومسلم [١٧٠٠] وأبو داود [٤٤٤٧]، [٤٤٤٨] وابن ماجه [٢٥٥٨].

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٢١) ومسلم [١٧٠١] وأبو داود [٤٤٥٥] والدارمي (٢/ ١٧٦).

(٣) المدارس: الكنائس.

(٤) رواه أبو داود [٤٤٤٩] وإسناده حسن كما قال الألباني في «الإرواء» (٥/ ٢٩٤). وهو صحيح فإن له شاهد من حديث ابن عباس.

فِي رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ زَنَيَا فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى أَتَى بَيْتَ مِدْرَاسِهِمْ فَقَامَ عَلَى البَابِ فَقَالَ: «**أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ؟**»، قَالُوا: نُحَمِّمُهُ وَنُجْبِيهِ وَنَجْلِدُهُ، وَالتَّجْبِيَةُ أَنْ يُحْمَلَ الزَّانِيَانِ عَلَى حِمَارٍ وَيُقَابَلَ أَقْفِيَتُهُمَا، وَيُطَافُ بِهِمَا قَالَ: وَسَكَتَ شَابٌّ مِنْهُمْ فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ سَاكِتًا أَنْشَدَهُ فَقَالَ: اللهُمَّ إِذْ نَشَدْتَنَا، فَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ «**فَمَا أَوَّلُ مَا ارْتَخَصْتُمْ أَمْرَ اللهِ**» قَالَ: زَنَى ذُو قَرَابَةِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِنَا فَأَخَّرَ عَنْهُ الرَّجْمَ، ثُمَّ زَنَى رَجُلٌ فِي أُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ فَأَرَادَ رَجْمَهُ فَحَالَ قَوْمُهُ دُونَهُ، وَقَالُوا: لَا يُرْجَمُ صَاحِبُنَا حَتَّى تَجِيءَ بِصَاحِبِكَ فَتَرْجُمَهُ، فَاصْطَلَحُوا هَذِهِ العُقُوبَةَ بَيْنَهُمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنِّي أَحْكُمُ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا**».

قَالَ الزُّهْرِيُّ فَبَلَغَنَا أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المَائِدَة: ٤٤].

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُمْ(١).

وَأَيْضًا فَقَدْ تَحَاكَمُوا إِلَيْهِ فِي القَوْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَكَانَ النَّضِيرُ أَشْرَفَ مِنْ قُرَيْظَةَ فَكَانَ إِذَا قَتَلَ بَعْضُ إِحْدَى القَبِيلَتَيْنِ قَتِيلًا مِنَ الأُخْرَى فَيَقْتُلُونَهُ وَلَمْ يُضَعِّفُوا الدِّيَةَ وَإِذَا قُتِلَ مِنَ القَبِيلَةِ الشَّرِيفَةِ قَتَلُوا بِهِ وَأَضْعَفُوا الدِّيَةَ.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ الأَشْعَثِ فِي «سُنَنِهِ» حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ العَلَاءِ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ صَالِحٍ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ

---

(١) رواه أبو داود [٤٤٥٠] والبيهقي (٨/ ٢٤٦-٢٤٧) عن الزهري، قال: سمعتُ رجلًا من مزينة يحدث عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، به.
وإسناده فيه انقطاع، لكن له شواهد.

قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ وَكَانَ النَّضِيرُ أَشْرَفَ مِنْ قُرَيْظَةَ فَكَانَ إِذَا قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْظَةَ رَجُلًا مِنَ النَّضِيرِ قُتِلَ بِهِ وَإِذَا قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ النَّضِيرِ رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَةَ وُدِيَ مِائَةَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ.

فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ النَّضِيرِ رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَةَ فَقَالُوا: ادْفَعُوهُ إِلَيْنَا نَقْتُلُهُ فَقَالُوا: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مُحَمَّدٌ فَأَتَوْهُ فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وَالقِسْطُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾. [المائدة: ٥٠]

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ مِنْ وَلَدِ هَارُونَ(١).

وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ.

وَعَلَى كُلِّ قَوْلٍ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ المَوْجُودَةِ بَعْدَ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حُكْمَ اللهِ وَأَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ اليَهُودَ تَرَكُوا حُكْمَ اللهِ الَّذِي فِي التَّوْرَاةِ مَعَ كُفْرِهِمْ بِالمَسِيحِ وَهَذَا ذَمٌّ مِنَ اللهِ لَهُمْ عَلَى مَا تَرَكُوهُ مِنْ حُكْمِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الكِتَابُ الأَوَّلُ وَلَمْ يَنْسَخْهُ الرَّسُولُ الثَّانِي.

وَهَذَا مِنَ التَّبْدِيلِ الثَّانِي: الَّذِي ذُمُّوا عَلَيْهِ وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ المَوْجُودَةِ بَعْدَ مَبْعَثِ المَسِيحِ حُكْمًا أَنْزَلَهُ اللهُ أُمِرُوا أَنْ يَحْكُمُوا بِهِ وَهَكَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي الإِنْجِيلِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الحُكْمَ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يَحْكُمُوا بِهِ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ وَلَمْ يَنْسَخْهُ الإِنْجِيلُ وَلَا القُرْآنُ، فَكَذَلِكَ مَا أُمِرُوا أَنْ يَحْكُمُوا بِهِ مِنْ أَحْكَامِ الإِنْجِيلِ هُوَ مِمَّا لَمْ يَنْسَخْهُ القُرْآنُ

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٤٩٤] وإسناده ضعيف، لكن شواهد.
لكن للحديث طريق أخرى، فرواه أحمد [٢٣٦٨] من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن طلحة بن يزيد عن إسماعيل بن إبراهيم الشيباني عن ابن عباس دون ذكر الآية. وإسناده حسن.
وأخرجه الطبراني [١٠٨٢٠] من طريق ابن إسحاق، الذي أخرجه في «سيرته» (٢/ ٢١٤) وقد خرجته مطولًا في «السيرة».

obeikandl.com

وَذَلِكَ أَنَّ الدِّينَ الجَامِعَ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَيَأْمُرَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَيَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ فِي أَيِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ وَلَمْ يَنْسَخْهُ، فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بِهِ.

وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ جَمَاهِيرِ السَّلَفِ وَالأَئِمَّةِ أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا مَا لَمْ يَرِدْ شَرْعُنَا بِخِلَافِهِ وَمَنْ حَكَمَ بِالشَّرْعِ المَنْسُوخِ فَلَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، كَمَا أَنَّ اللهَ أَمَرَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي القُرْآنِ وَفِيهِ النَّاسِخُ وَالمَنْسُوخُ فَهَكَذَا القَوْلُ فِي جِنْسِ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المَائِدَة: ٤٨-٥٦].

فَقَدْ أَمَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِ وَحَذَّرَهُ اتِّبَاعَ أَهْوَائِهِمْ وَبَيَّنَ أَنَّ الْمُخَالِفَ لِحُكْمِهِ هُوَ حُكْمُ الجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المَائِدَة: ٥٠].

وَأَخْبَرَهُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلٍّ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَأَمْرُهُ تَعَالَى بِالحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ أَمْرٌ عَامٌّ لِأَهْلِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ أَنْ يَحْكُمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَالَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ هُوَ دِينٌ وَاحِدٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الكُتُبُ وَالرُّسُلُ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ وَإِنْ تَنَوَّعُوا فِي الشِّرْعَةِ وَالمِنْهَاجِ بَيْنَ نَاسِخٍ وَمَنْسُوخٍ فَهُوَ شَبِيهٌ بِتَنَوُّعِ حَالِ الكِتَابِ الوَاحِدِ، فَإِنَّ المُسْلِمِينَ كَانُوا أَوَّلًا مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ لِبَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ أُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا إِلَى المَسْجِدِ الحَرَامِ وَفِي كِلَا الأَمْرَيْنِ إِنَّمَا اتَّبَعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَكَذَلِكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَأْمُورًا بِالسَّبْتِ مُحَرَّمًا عَلَيْهِ مَا حَرَّمَهُ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَهُوَ مُتَّبِعٌ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَالمَسِيحُ أَحَلَّ بَعْضَ مَا حَرَّمَهُ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَهُوَ مُتَّبِعٌ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَلَيْسَ فِي أَمْرِ اللهِ لِأَهْلِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ أَمْرٌ بِمَا نَسَخَ؛ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَمْرِ أَهْلِ القُرْآنِ أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ أَمْرٌ بِمَا نَسَخَ، بَلْ إِذَا كَانَ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ فَالَّذِي أَنْزَلَ اللهُ هُوَ الحُكْمُ بِالنَّاسِخِ دُونَ المَنْسُوخِ فَمَنْ حَكَمَ بِالمَنْسُوخِ فَقَدْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المَائِدَة: ٦٨].

فَإِنَّ هَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِأَهْلِ الكِتَابِ الَّذِي بُعِثَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ حَتَّى يُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ عِنْدَهُمْ مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ وَأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِإِقَامَتِهِ إِذْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا

قَرَّرَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَلَمْ يَنْسَخْهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ وَلَمْ يَنْسَخْهُ النَّبِيُّ ﷺ الثَّانِي بَلْ أَقَرَّهُ كَانَ اللهُ آمِرًا بِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ بَعْدَ نَبِيٍّ وَلَمْ يَكُنْ فِي بَعْثَةِ الثَّانِي مَا يُسْقِطُ وُجُوبَ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ الأَوَّلُ وَقَرَّرَهُ النَّبِيُّ الثَّانِي.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ يَنْسَخُ بِالكِتَابِ الثَّانِي جَمِيعَ مَا شَرَعَهُ بِالكِتَابِ الأَوَّلِ وَإِنَّمَا المَنْسُوخُ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الكُتُبُ وَالشَّرَائِعُ.

وَأَيْضًا فَفِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ مَا دَلَّ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِذَا حَكَمَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِمَا حَكَمُوا بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِمُ اتِّبَاعَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهُ إِذْ لَا يُؤْمَرُونَ أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَالحُكْمُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالعِلْمِ بِبَعْضِ مَعَانِي الكُتُبِ لَا يُنَافِي عَدَمَ العِلْمِ بِبَعْضِهَا وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي المَعَانِي، فَإِنَّ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودَ وَالنَّصَارَى مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ فِي الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ الأَمْرَ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الخَلْقِ رُسُلًا مِنَ البَشَرِ وَأَنَّهُ أَوْجَبَ العَدْلَ وَحَرَّمَ الظُّلْمَ وَالفَوَاحِشَ وَالشِّرْكَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرَائِعِ الكُلِّيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا الوَعْدَ بِالثَّوَابِ وَالوَعِيدِ بِالعِقَابِ بَلْ هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَقَدْ تَنَازَعُوا فِي بَعْضِ مَعَانِيهَا وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ ذَلِكَ؛ كَمَا اخْتَلَفَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي المَسِيحِ المُبَشِّرِ بِهِ النُّبُوَّاتُ، هَلْ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ مَسِيحٌ آخَرُ يُنْتَظَرُ[1]، وَالمُسْلِمُونَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الصَّوَابَ فِي هَذَا مَعَ النَّصَارَى لَكِنْ لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى مَا أَحْدَثُوا فِيهِ مِنَ الإِفْكِ وَالشِّرْكِ.

---

(١) سمي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مسيحًا؛ لسياحته في الأرض، وقيل: مسيح فعيل من مسح الأرض لأنه كان يمسحها، أي: يقطعها، وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن، وقيل: لأنه كان أمسح الرجلين، ليس لرجله أخمص، وقيل: لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برأه، وقيل: المسيح الصديق. ويرجع هذا اللقب إلى الشعائر التي درجت عليها اليهودية، منذ أبيهم الأول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث اعتبر المسح بالزيت المقدس من أعظم شعائر التقديس، والتكريم للناس، والأماكن... ولا يمسح بالزيت المقدس سوى الكهنة، والملوك، والأنبياء لذلك سموا هؤلاء مسحاء الله، أي: المختارين، والمباركين من الله.

وَكَذَلِكَ يُقَالُ: إِذَا بُدِّلَ قَلِيلٌ مِنْ أَلْفَاظِهَا الخَبَرِيَّةِ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ أَلْفَاظِهَا لَمْ يُبَدَّلْ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي نَفْسِ الكِتَابِ مَا يَدُلُّ عَلَى المُبَدَّلِ وَقَدْ يُقَالُ أَنَّ مَا بُدِّلَ مِنْ أَلْفَاظِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ فَفِي نَفْسِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ مَا يَدُلُّ عَلَى تَبْدِيلِهِ فَبِهَذَا يَحْصُلُ الجَوَابُ عَنْ شُبْهَةِ مَنْ يَقُولُ أَنَّهُ لَمْ يُبَدَّلْ شَيْءٌ مِنْ أَلْفَاظِهَا، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِذَا كَانَ التَّبْدِيلُ قَدْ وَقَعَ فِي أَلْفَاظِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يُعْلَمِ الحَقُّ مِنَ البَاطِلِ، فَسَقَطَ الاِحْتِجَاجُ بِهِمَا وَوُجُوبُ العَمَلِ بِهِمَا عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ فَلَا يُذَمُّونَ حِينَئِذٍ عَلَى تَرْكِ اتِّبَاعِهِمَا، وَالقُرْآنُ قَدْ ذَمَّهُمْ عَلَى تَرْكِ الحُكْمِ بِمَا فِيهِمَا وَاسْتَشْهَدَ بِهِمَا فِي مَوَاضِعَ.

وَجَوَابُ ذَلِكَ: أَنَّ مَا وَقَعَ مِنَ التَّبْدِيلِ قَلِيلٌ وَالأَكْثَرُ لَمْ يُبَدَّلْ وَالَّذِي لَمْ يُبَدَّلْ فِيهِ أَلْفَاظٌ صَرِيحَةٌ تَبَيَّنَ بِهَا المَقْصُودُ مِنْ غَلَطِ مَا خَالَفَهَا وَلَهَا شَوَاهِدُ وَنَظَائِرُ مُتَعَدِّدَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا بِخِلَافِ المُبَدَّلِ، فَإِنَّهُ أَلْفَاظٌ قَلِيلَةٌ، وَسَائِرُ نُصُوصِ الكُتُبِ يُنَاقِضُهَا، وَصَارَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ كُتُبِ الحَدِيثِ المَنْقُولَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» وَالتِّرْمِذِيِّ أَوْ غَيْرِهِمَا أَحَادِيثُ قَلِيلَةٌ ضَعِيفَةٌ كَانَ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يُبَيِّنُ ضَعْفَ تِلْكَ.

بَلْ وَكَذَلِكَ «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» فِيهِ أَلْفَاظٌ قَلِيلَةٌ غَلَطٌ، وَفِي نَفْسِ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَعَ القُرْآنِ مَا يُبَيِّنُ غَلَطَهَا، مِثْلُ مَا رُوِيَ «أَنَّ اللهَ خَلَقَ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَجَعَلَ خَلْقَ المَخْلُوقَاتِ فِي الأَيَّامِ السَّبْعَةِ»، فَإِنَّ هَذَا الحَدِيثَ قَدْ بَيَّنَ أَئِمَّةُ الحَدِيثِ كَيَحْيَى بْنِ مَعِينٍ وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ وَالبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ غَلَطٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ بَلْ صَرَّحَ البُخَارِيُّ فِي «تَارِيخِهِ الكَبِيرِ» أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ كَعْبِ الأَحْبَارِ[1]؛ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ، وَالقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى غَلَطِ هَذَا، وَيُبَيِّنُ أَنَّ الخَلْقَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

---

(١) رواه البخاري في «تاريخه» (١/ ١/ ٤١٣) معلقًا، ووصله مسلم [٢٧٨٩] [٢٧] والنسائي في «التفسير» [٣٠] وأحمد (٢/ ٢٢٧) وابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٩٤-٩٥) وفي «تاريخه» (١/ ٥٥-٥٦) وأبو الشيخ في «العظمة» [٨٧٥] وأبو يعلى [٦١٣٢] وابن منده في «التوحيد»

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ آخِرَ الخَلْقِ كَانَ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَيَكُونُ أَوَّلُ الخَلْقِ يَوْمَ الأَحَدِ.

---

[٥٨] والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٣) وفي «الأسماء» (٢/ ١٢٤) من طريق حجاج بن محمد عن ابن جريج قال: أخبرني إسماعيل بن أُمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة من آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة فيها بعد العصر إلى الليل**».

قلت: وهذا الحديث عليه طعون كثيرة من بعض أهل العلم، ولقد رد هذه الطعون وأثبت الحديث وصحته جماعة من أهل العلم أيضًا، وقد نقل شيخنا الفاضل محدث مصرنا الشيخ أبو إسحاق الحويني - حفظه الله - نقولًا وحقق القول في إثباته في «تفسير ابن كثير» المجلد الثاني المطبوع، وأنا أنقل عنه ذلك بالنص حتى أذهب إلى ما ذهب إليه من صحة الحديث وأنه لا مطعن فيه والحمد لله.

وتابعه هشام بن يوسف عن ابن جريج بسنده سواء.

أخرجه ابن معين في «تاريخه» [٢١٠]، ومن طريقه الدولابي في «الكنى» (١/ ١٧٥).

وتابعه أيضًا محمد بن ثور، عن ابن جريج مثله، أخرجه أبو الشيخ في «كتاب العظمة» [٨٧٦]، والطبراني في «الأوسط» [٣٢٣٢] ووقع عنده سقط في الإسناد كما حررته في «التسلية».

وخولف هؤلاء الثلاثة - أعني: حجاج بن محمد وهشام بن يوسف ومحمد بن ثور - خالفهم الأخضر بن عجلان، فرواه عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة مرفوعًا نحوه.

أخرجه النسائي في «التفسير» [٤١٢]، والأكثرون على تعديل الأخضر بن عجلان، وفي باب الترجيح، فإن رواية الجماعة تترجح عليه. وقد تكلم بعض أهل العلم في هذا الحديث سندًا ومتنًا، وقد أطلت البحث في «تسلية الكظيم» دفاعًا عن هذا الحديث وأنا أذكر هنا خلاصة ما كتبته هناك.

أما إعلالهم الحديث من جهة السند. فقال ابن المديني: «ما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا الحديث إلا من إبراهيم بن أبي يحيى». اهـ.

* **قلت**: وحديث إبراهيم بن أبي يحيى هذا أخرجه الحاكم في «علوم الحديث» ص[٣٣] ومن طريقه أبو بكر الخبازي في «الأمالي» (ق ١٤٠/ ١-٢)، والطيوري في «الطيوريات» (جـ ٤/ ق ٦٩/ ١-٢) من طريق إبراهيم بن أبي يحيى قال: شبك بيدي أيوب بن خالد الأنصاري قال: شبك بيدي عبد الله بن رافع: قال شبك بيدي أبو هريرة قال: شبك بيدي ضفوان بن سليم قال: شبك بيدي أبو القاسم ﷺ وقال: ثم ذكر الحديث وضعفه الحاكم هكذا مسلسلًا بذكر التشبيك، وإبراهيم متروك.

أما قول ابن المديني أن إسماعيل بن أمية أخذه من إبراهيم فليس عليه دليل، وإنما يتخوف من هذا إذا كان الراوي ممن يرسل أو يدلس وليس إسماعيل واحدًا من هذين بل هو ثقة ثبت، ولو سلمنا أن

إسماعيل دلَّس إبراهيم بن أبي يحيى فكان ينبغي أن يكون السند «إسماعيل عن صفوان، عن أيوب بن خالد» ولا ذكر لـ«صفوان» أصلًا.

وممن أعله أيضًا الإمام البخاري فقال: «وقال بعضهم: عن أبي هريرة، عن كعب وهو أصحُّ...».

فالجواب عن ذلك: أننا لا ندري من هذا البعض فقد يكون ممن لا يحتج به وإنما رجحه البخاري لأمر آخر، ومما يؤكد ذلك أنني بحثت في الكتب التي عنيت بذكر بدء الخلق فلم أظفر بشيء عن كعب يقول فيه: إن الله ابتدأ الخلق يوم السبت، بل المنقول عنه كما في «تاريخ الطبري» (١/ ٤٤) وعن وهب بن منبه وعن سائر أهل الكتاب أن الله عَزَّوَجَلَّ ابتدأ الخلق يوم الأحد فكيف يصح أن ينسب إلى كعب أنه يقول: بدأ الله الخلق يوم السبت.

أما إعلاله من جهة المتن، فقد قال ابن جرير في «تاريخه»: إن هذا الحديث ينافي محكم القرآن وقد تكرر في غير ما آية أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق السموات والأرض في ستة أيام، وحديث أبي هريرة فيه أن مدة الخلق سبعة أيام وقد اتفق الناس على أن بدأ الخلق كان يوم الأحد وفي حديث أبي هريرة أنه كان يوم السبت، ثم إنه لم يرد ذكر خلق السموات في حديث أبي هريرة.

هذا خلاصة ما اعترض به ابن جرير وغيره ممن تبعه كابن تيمية في «الفتاوى» (١٨/ ١٨-١٩) وتلميذاه الإمامان: ابن القيم في «المنار المنيف» ص(٨٤-٨٦)، وابن كثير المصنف هنا في هذا الموضع وفي تفسير «الأعراف» و«السجدة» و«فصلت».

والجواب عما ذكروه من وجوهٍ:

أولا- ليس في يد المعترض على الحديث أي دليل صحيح يعول عليه أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد إلا ما يؤثر عن أهل الكتاب، ولو صحَّ عنهم فقد أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم وليس في يد القائلين بهذا القول عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثارةٌ صحيحةٌ من علم، واحتج لهم ابن جرير بما رواه هو في «تفسيره» (٢٤/ ٩٤)، وفي «تاريخه» (١/ ٥٤-٥٥، ٥٦) وكذلك أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤٣)، وأبو الشيخ في «كتاب العظمة» [٨٧٨] من طريق هناد بن السري، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي سعد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع الناس، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب...**» الحديث.

قال ابن جرير في «تاريخه»: «وهذا أصح مخرجًا وأولى بالحق لأنه قول أكثر السلف من حديث أبي هريرة» ويعني الذي أخرجه مسلم.

* **قلت**: وليس كما قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن حديث ابن عباس هذا منكر، وأبو سعد البقال شبه المتروك، وكان يدلس أيضًا ولم يصرح بسماع. وأبو بكر بن عياش اختلط حديثه. وقد خالفه ابن عيينة وهو أثبت منه بكثير، فرواه عن أبي سعد البقال، عن عكرمة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرسله.

أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢١٠)، عن معمر، عن ابن عيينة، وخولف معمر. خالفه ابن أبي عمر العدني وإسماعيل بن صبيح اليشكري فروياه عن ابن عيينة، عن أبي سعد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفًا أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» [٨٧٩]، والحاكم (٢/ ٤٥٠) وكل هذه الأسانيد مع اضطرابها فمدارها على أبي سعد البقال، فكيف يقال: إن مخرج هذا الحديث أصح من حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم؟! فليس في يد المحتج أن الله عَزَّوَجَلَّ ابتدأ الخلق يوم الأحد إلا هذا الحديث المرفوع مع ما فيه من الضعف والنكارة؟ فماذا بقي لهم؟!

ثانيًا- أما قول ابن جرير: إنه قول أكثر السلف فمعارض بما قاله ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٢١١): «إن الله بدأ الخلق يوم السبت وهذا اختيار ابن إسحاق.

وقال أبو بكر بن الأنباري: وهذا إجماع أهل العلم» اهـ.

وقال السهيلي في «الروض الأنف» (٢/ ٢٧١) متعقبًا ابن جرير: «والعجب من الطبري على تبحره في العلم كيف خالف مقتضى هذا الحديث - يعني: حديث أبي هريرة: «خلق الله التربة يوم السبت» - وأعنف في الرد على ابن إسحاق وغيره ومال إلى قول اليهود في أن الأحد هو الأول ويوم الجمعة السادس لا وتر، وإنما الوتر في قولهم يوم السبت مع ما ثبت من قوله ﷺ: أضلته اليهود والنصارى وهداكم الله إليه، وما احتج به الطبري من حديث آخر فليس في الصحة كالذي قدمناه».

ثالثًا- أما قولهم: إن هذا الحديث يعارض القرآن حيث ذكر أن مدة الخلق ستة أيام بينما حديث أبي هريرة ذكر أن مدة الخلق سبعة؟!

فأقول: سياقُ حديث عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة الذي أخرجه النسائي في «التفسير» [٤١٢] يحل هذا الإشكال من أساسه. ولفظه: «**يا أبا هريرة! إن الله خلق السموات والأرضين وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع وخلق التربة يوم السبت والجبال يوم الأحد والشجر يوم الاثنين والتقن - ويقال: الفتن- يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء والدواب يوم الخميس وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر وخلق أديم الأرض أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها من أجل ذلك جعل الله عَزَّوَجَلَّ من آدم الطيب والخبيث..**».

* **قلت**: فقد صرح في الحديث أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وهو موافق لآيات التنزيل ثم قال: «**وخلق آدم يوم الجمعة**» وهو اليوم السابع ولم يذكر في القرآن ولا في السنة أن خلق آدم كان من جملة الأيام الستة، ولا دليل على أن يوم الجمعة المذكور كان عقب يوم الخميس الذي قبله حتى يُعد هذا اليوم سابعًا مع سابقه، ويدل على هذا أن خلق آدم تأخر عن خلق الملائكة والجن والسموات والأرض كما هو واضح من آيات خلق آدم في سورة البقرة وغيرها. ومما يستدل به على هذا ما أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦١) وصححه ووافقه الذهبي وهو كما

وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ، صَلَّى الكُسُوفَ بِرُكُوعَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ.

فَإِنَّ الثَّابِتَ المُتَوَاتِرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ صَلَّى كُلَّ رَكْعَةٍ بِرُكُوعَيْنِ وَلِهَذَا لَمْ يُخَرِّجِ

قالا عن ابن عباس قال: لقد أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يدخلها أحد قال الله تعالى: «**إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**» وقد كان فيها قبل أن يخلق بألفي عام بنو الجان.. وساق الحديث».

وأخرجه ابن أبي حاتم [٣٢٢] لكنه جعل الصحابي: «عبد الله بن عمرو» بدل «ابن عباس».

وحديث عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة وإن تكلم في إسناده فهو أقوى بكثير من حديث ابن عباس الذي احتج به الطبري والله أعلم.

رابعًا- أما قولهم: إن خلق السموات لم يذكر في حديث أبي هريرة فقد أجيب عن ذلك بجوابين:

الأول: قال الشيخ العلامة عبد الرحمن المعلمي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الأنوار الكاشفة» ص[١٩٠]: «والحديث وإن لم ينص على خلق السماء فقد أشار إليه بذكره في اليوم الخامس «النور» وفي السادس: «الدواب» وحياة الدواب محتاجة إلى الحرارة، والنور والحرارة مصدرهما الأجرام السماوية، والذي فيه أن خلق الأرض نفسها كان في أربعة أيام كما في القرآن، والقرآن إذ ذكر خلق الأرض في أربعة أيام لم يذكر ما يدل على أن من جملة ذلك خلق النور والدواب، وإذ ذكر خلق السماء في يومين لم يذكر ما يدل أنه في أثناء ذلك لم يحدث في الأرض شيئًا والمعقول أنها بعد تمام خلقها أخذت في التطور بما أودعه الله تعالى فيهما، والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن».

الثاني: قال شيخنا أبو عبد الرحمن الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على «مشكاة المصابيح» (٣/ ١٥٩٨) بعد أن ذكر حديث أبي هريرة: «ولا مطعن في إسناده ألبتة وليس هو بمخالف للقرآن بوجه من الوجوه خلافًا لما توهمه بعضهم، فإن الحديث يفصل كيفية الخلق على الأرض وحدها وأن ذلك كان في سبعة أيام ونص القرآن على أن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام والأرض في يومين ولا يعارض ذلك لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة في الحديث وأنه - أعني: الحديث - تحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على وجه الأرض حتى صارت صالحة للسكنى، ويؤيده أن القرآن يذكر أن بعض الأيام عند الله تعالى كألف سنة، وبعضها مقداره خمسون ألف سنة، فما المانع أن تكون الأيام الستة من هذا القبيل، والأيام السبعة من أيامنا هذه كما هو صريح الحديث، وحينئذ فلا تعارض بينه وبين القرآن». اهـ.

* **قلت**: والمقام يحتمل البسط، وإنما أطلت في التعليق على هذا الحديث؛ لأن بعض أهل البدع تكلم عن هذا الحديث واتخذه سلمًا للطعن على «صحيح مسلم»، وصارت فوضى ولا عمر لها. والله المستعان.

البُخَارِيُّ إِلَّا ذَلِكَ، وَضَعَّفَ الشَّافِعِيُّ وَالبُخَارِيُّ وَأَحْمَدُ فِي أَحَدِ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ وَغَيْرُهُمْ حَدِيثَ الثَّلَاثِ وَالأَرْبَعِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا صَلَّى الكُسُوفَ مَرَّةً وَاحِدَةً وَفِي حَدِيثِ الثَّلَاثِ وَالأَرْبَعِ أَنَّهُ صَلَّاهَا يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُهُ، وَأَحَادِيثُ الرُّكُوعَيْنِ كَانَتْ ذَلِكَ اليَوْمَ فَمِثْلُ هَذَا الغَلَطِ إِذَا وَقَعَ كَانَ فِي نَفْسِ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ غَلَطٌ، وَالبُخَارِيُّ إِذَا رَوَى الحَدِيثَ بِطُرُقٍ فِي بَعْضِهَا غَلَطٌ فِي بَعْضِ الأَلْفَاظِ ذَكَرَ مَعَهُ الطُّرُقَ الَّتِي تُبَيِّنُ ذَلِكَ الغَلَطَ؛ كَمَا قَدْ بَسَطْنَا الكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ.

فَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: إِنَّهُ وَقَعَ تَبْدِيلٌ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ كَانَ فِي الكُتُبِ مَا يُبَيِّنُ لَكَ الغَلَطَ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ المُسْلِمِينَ لَا يَدَّعُونَ أَنَّ كُلَّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ مِنْ زَمَنِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِكُلِّ لِسَانٍ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ بُدِّلَتْ أَلْفَاظُهَا، فَإِنَّ هَذَا لَا أَعْرِفُ أَحَدًا مِنَ السَّلَفِ قَالَهُ وَإِنْ كَانَ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ مَنْ قَدْ يَقُولُ ذَلِكَ، كَمَا فِي بَعْضِ المُتَأَخِّرِينَ مَنْ يُجَوِّزُ الِاسْتِنْجَاءَ بِكُلِّ مَا فِي العَالَمِ مِنْ نُسَخِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ. فَلَيْسَتْ هَذِهِ الأَقْوَالُ وَنَحْوُهَا مِنْ أَقْوَالِ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا رَأَى بِيَدِ كَعْبِ الأَحْبَارِ نُسْخَةً مِنَ التَّوْرَاةِ قَالَ: يَا كَعْبُ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ التَّوْرَاةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ فَاقْرَأْهَا فَعَلَّقَ الأَمْرَ عَلَى مَا يَمْتَنِعُ العِلْمُ بِهِ وَلَمْ يَجْزِمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنَّ أَلْفَاظَ تِلْكَ مُبَدَّلَةٌ لَمَّا لَمْ يَتَأَمَّلْ كُلَّ مَا فِيهَا.

وَالقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ المُتَوَاتِرَةُ يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ المَوْجُودَيْنِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِمَا مَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَالجَزْمُ بِتَبْدِيلِ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ الَّتِي فِي العَالَمِ مُتَعَذِّرٌ وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهِ وَلَا عِلْمَ لَنَا بِذَلِكَ وَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ كُلَّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ بِجَمِيعِ الأَلْسِنَةِ مِنَ الكُتُبِ مُتَّفِقَةٌ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا لَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنَ البَشَرِ أَنْ يَعْرِفَهُ بِاخْتِبَارِهِ وَامْتِحَانِهِ وَإِنَّمَا يُعْلَمُ مِثْلُ هَذَا بِالوَحْيِ وَإِلَّا فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنَ البَشَرِ أَنْ يُقَابِلَ كُلَّ نُسْخَةٍ مَوْجُودَةٍ فِي العَالَمِ بِكُلِّ نُسْخَةٍ مِنْ جَمِيعِ الأَلْسِنَةِ

بِالكُتُبِ الأَرْبَعَةِ وَالعِشْرِينَ وَقَدْ رَأَيْنَاهَا مُخْتَلِفَةً فِي الأَلْفَاظِ اخْتِلَافًا بَيِّنًا، وَالتَّوْرَاةُ هِيَ أَصَحُّ الكُتُبِ وَأَشْهَرُهَا عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمَعَ هَذَا فَنُسْخَةُ السَّامِرَةِ مُخَالِفَةٌ لِنُسْخَةِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى حَتَّى فِي نَفْسِ الكَلِمَاتِ العَشْرِ ذُكِرَ فِي نُسْخَةِ السَّامِرَةِ مِنْهَا مِنْ أَمْرِ اسْتِقْبَالِ الطُّورِ مَا لَيْسَ فِي نُسْخَةِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ التَّبْدِيلَ وَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نُسَخِ هَذِهِ الكُتُبِ، فَإِنَّ عِنْدَ السَّامِرَةِ نُسَخًا مُتَعَدِّدَةً (١).

وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا فِي الزَّبُورِ نُسَخًا مُتَعَدِّدَةً تُخَالِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا مُخَالَفَةً كَثِيرَةً فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَلْفَاظِ وَالمَعَانِي يَقْطَعُ مَنْ رَآهَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهَا كَذِبٌ عَلَى زَبُورِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَّا الأَنَاجِيلُ فَالِاضْطِرَابُ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْهُ فِي التَّوْرَاةِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَتِ الكُتُبُ المُتَقَدِّمَةُ مَنْسُوخَةً فَلِمَاذَا ذَمَّ أَهْلُ الكِتَابِ عَلَى تَرْكِ الحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْهَا؟ قِيلَ: النَّسْخُ لَمْ يَقَعْ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الشَّرَائِعِ وَإِلَّا فَالإِخْبَارُ عَنِ اللهِ وَعَنِ اليَوْمِ الآخِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لَا نَسْخَ فِيهِ.

---

(١) نسخ العهد القديم (التوراة) ثلاث نسخ:

الأولى- العبرانية: وهي المعتبرة عند اليهود، وجمهور علماء البروتستانت.

الثانية- اليونانية: وهي المعتبرة عند الكنيسة اليونانية، وعند كنائس المشرق.

(وهاتان النسختان تشتمل على جميع أسفار العهد القديم).

الثالثة- السامرية: وهي المعتبرة عند السامريين، وتشتمل على سبعة أسفار من العهد القديم؛ الخمسة المنسوبة إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسفر يشوع، والقضاة. ولا يسلم السامريون الأسفار الباقية.

وقد أخرج الدكتور أحمد السقا كتابًا بعنوان «من الفروق بين التوراة السامرية، والعبرانية في الألفاظ والمعاني»، ويقع في ست وسبعين صفحة طبعة دار الأنصار. فمن الفروق التكوين: الإصحاح الأول فقرة [٢]. في السامرية (ورياح الله هابة على وجه الماء). وفي العبرانية (وروح الله..).

ثم ساق الفروق في سفر التكوين كله، وانتقل بعد ذلك إلى ذكر الفروق في سفر الخروج، ثم في بقية الأسفار. وهذا الكتاب عظيم الفائدة، وجدير بالقراءة. وقد أورد الأستاذ موريس بوكاي، جملًا عظيمة من التناقضات الكثيرة بين الأناجيل وكتب التوراة في كتابه (دراسة الكتب المقدسة) طبعة دار المعارف من ص [٧٥-١٣١].

obeikandl.com

وَكَذَلِكَ الدِّينُ الجَامِعُ وَالشَّرَائِعُ الكُلِّيَّةُ لَا نَسْخَ فِيهَا وَهُوَ سُبْحَانَهُ ذَمَّهُمْ عَلَى تَرْكِ اتِّبَاعِ الكِتَابِ الأَوَّلِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ كَفَرُوا مِنْ وَجْهَيْنِ مِنْ جِهَةِ تَبْدِيلِهِمُ الكِتَابَ الأَوَّلَ، وَتَرْكِ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ بِبَعْضِهِ، وَمِنْ جِهَةِ تَكْذِيبِهِمْ بِالكِتَابِ الثَّانِي: وَهُوَ القُرْآنُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البَقَرَة: ٩١].

فَبَيَّنَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا قَبْلَ مَبْعَثِهِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ وَقَتَلُوا الأَنْبِيَاءَ كَمَا كَفَرُوا حِينَ مَبْعَثِهِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [القَصَص: ٤٨-٤٩].

وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَذُمُّهُمْ عَلَى تَرْكِ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَعَلَى تَرْكِ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَهُ فِي القُرْآنِ وَيُبَيِّنُ كُفْرَهُمْ بِالكِتَابِ الأَوَّلِ وَبِالكِتَابِ الثَّانِي: وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَمْرُهُمْ أَنْ يَحْكُمُوا بِالمَنْسُوخِ مِنَ الكِتَابِ الأَوَّلِ؛ كَمَا لَيْسَ فِيهِ أَمْرُهُمْ أَنْ يَحْكُمُوا بِالمَنْسُوخِ فِي الكِتَابِ الثَّانِي.

فَصْلٌ

قياس النصارى كتبهم على القرآن قياس باطل

فَحِينَئِذٍ فَقَوْلُهُمْ: إِنَّا نَعْجَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ عَلَى عِلْمِهِمْ وَذَكَائِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ كَيْفَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْنَا بِمِثْلِ هَذَا القَوْلِ؟

وَذَلِكَ أَنَّا أَيْضًا إِذَا قُلْنَا وَاحْتَجَجْنَا عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا القَوْلِ إِنَّ الكِتَابَ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ يَوْمَنَا هَذَا قَدْ غَيَّرُوهُ وَبَدَّلُوهُ وَكَتَبُوا فِيهِ مَا أَرَادُوا وَاشْتَهَوْا هَلْ كَانُوا يُجَوِّزُونَ كَلَامَنَا؟

قَالَ الحَاكِي عَنْهُمْ: فَقُلْتُ لَهُمْ: هَذَا مَا لَا يَجُوزُ وَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَهُ وَلَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهُ وَلَا تَبْدِيلُ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُ.

فَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ! إِذَا كَانَ الكِتَابُ الَّذِي لَهُمْ، الَّذِي هُوَ بِاللِّسَانِ الوَاحِدِ لَا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ، وَلَا تَغْيِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُ فَكَيْفَ يُمْكِنُ تَغْيِيرُ كُتُبِنَا الَّتِي هِيَ مَكْتُوبَةٌ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا وَفِي كُلِّ لِسَانٍ مِنْهَا كَذَا وَكَذَا أَلْفِ نُسْخَةٍ وَجَازَ عَلَيْهَا إِلَى مَجِيءِ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِنْ سِتِّمِائَةِ سَنَةٍ، وَصَارَتْ فِي أَيْدِي النَّاسِ يَقْرَءُونَهَا بِاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِهِمْ عَلَى تَشَاسُعِ بُلْدَانِهِمْ.

فَمَنِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا؟ وَمَنْ هُوَ الَّذِي حَكَمَ عَلَى الدُّنْيَا جَمِيعِهَا مُلُوكِهَا وَقَسَاوِسَتِهَا وَغَالِبِهَا حَتَّى حَكَمَ عَلَى جَمِيعِهَا فِي أَقْطَارِ الأَرْضِ وَجَمَعَهَا فِي أَرْبَعِ زَوَايَا العَالَمِ حَتَّى يُغَيِّرَهَا؟

وَإِنْ كَانَ غَيَّرَ بَعْضَهَا، وَتَرَكَ بَعْضَهَا فَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِأَنَّ كُلَّهَا قَوْلٌ وَاحِدٌ وَلَفْظٌ وَاحِدٌ فِي جَمِيعِ الأَلْسُنِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَهُ أَبَدًا.

وَالجَوَابُ أَنْ يُقَالَ:

أَوَّلًا- هَـذَا الكَلَامُ مِنْهُمْ يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ جَهْلِهِمْ بِمَا يَقُولُهُ المُسْـلِمُونَ فِي كُتُبِهِمْ، وَتَبَيَّنُ أَنَّهُـمْ - لِفَـرْطِ جَهْلِهِمْ - يَظُنُّونَ أَنَّ المُسْـلِمِينَ يَقُولُـونَ مَقَالَةً لَا يَخْفَى فَسَـادُهَا عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى عَقْلٍ وَمَعْرِفَةٍ وَالمُسْـلِمُونَ لَا يَشُـكُّ أَحَدٌ مِنَ الأُمَمِ أَنَّهُمْ أَعْظَمُ الأُمَمِ عُقُولًا وَأَفْهَامًا وَأَتَمُّهُـمْ مَعْرِفَةً وَبَيَانًا وَأَحْسَـنُ قَصْـدًا وَدِيَانَةً وَتَحَرِّيًا لِلصِّدْقِ وَالعَـدْلِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْصُلْ فِي النَّوْعِ الإِنْسَـانِيِّ أُمَّـةٌ أَكْمَلُ مِنْهُمْ وَلَا نَامُـوسٌ [١] أَكْمَلُ مِنَ النَّامُوسِ الَّذِي جَـاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ مُحَمَّـدٌ ﷺ وَحُذَّاقُ الفَلَاسِـفَةِ [٢] مُعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِذَلِكَ وَأَنَّـهُ لَمْ يَقْرَعِ العَالَمَ نَامُوسٌ أَكْمَلُ مِنْ هَذَا النَّامُوسِ.

وَقَـدْ جَمَـعَ اللهُ لِلْمُسْـلِمِينَ جَمِيـعَ طُـرُقِ المَعَـارِفِ الإِنْسَـانِيَّةِ، وَأَنْوَاعِهَا فَـإِنَّ النَّاسَ نَوْعَانِ:

أَهْلُ كِتَابٍ وَغَيْرُ أَهْلِ كِتَابٍ، كَالفَلَاسِفَةِ وَالهُنُودِ.

وَالعِلْمُ يُنَالُ بِالحِسِّ وَالعَقْلِ، وَمَا يُحَصَّلُ بِهِمَا وَبِوَحْيِ اللهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ الَّذِي هُوَ خَارِجٌ عَمَّا يَشْتَرِكُ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الحِسِّ وَالعَقْلِ.

وَلِهَذَا قِيلَ: الطُّرُقُ العِلْمِيَّةُ البَصَرُ، وَالنَّظَرُ، وَالخَبَرُ: الحِسُّ، وَالعَقْلُ وَالوَحْيُ: الحِسُّ وَالقِيَاسُ، وَالنُّبُوَّةُ.

---

(١) **الناموس**: اسم يوناني الأصل، معناه: «شريعة أو قانون».
ويطلق على ما جاء به موسى عليه السلام من شريعة.

(٢) **الفلاسفة**: هم المشتغلون بالفلسفة، وكلمة فلسفة: كلمة يونانية دخيلة على اللسان العربي، وهي مركبة من (فيلو) ومعناها: محبة أو إيثار أو طلب، و(سوفيا) ومعناها: الحكمة، فكلمة فلسفة إذًا تعني محبة الحكمة أو طلب الحكمة، أو إيثار الحكمة.
وأما نحن المسلمون فإننا نرى أن الفلسفة وغيرها من العلوم اليونانية جَرَّت على المسلمين الكثير من الويلات.

فَأَهْلُ الكِتَابِ امْتَازُوا عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ النُّبُوَّةِ مَعَ مُشَارَكَتِهِمْ لِغَيْرِهِمْ فِيمَا يَشْتَرِكُ فِيهِ النَّاسُ مِنَ العُلُومِ الحِسِّيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ.

وَالمُسْلِمُونَ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ العُلُومِ النَّبَوِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ مَا كَانَ لِلْأُمَمِ قَبْلَهُمْ، وَامْتَازُوا عَنْهُمْ بِمَا لَا تَعْرِفُهُ الأُمَمُ وَمَا اتَّصَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ عَقْلِيَّاتِ الأُمَمِ هَذَّبُوهُ لَفْظًا وَمَعْنًى حَتَّى صَارَ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ عِنْدَهُمْ وَنَفَوْا عَنْهُ مِنَ البَاطِلِ وَضَمُّوا إِلَيْهِ مِنَ الحَقِّ مَا امْتَازُوا بِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ.

وَكَذَلِكَ العُلُومُ النَّبَوِيَّةُ أَعْطَاهُمُ اللهُ مَا لَمْ يُعْطِهِ أُمَّةً قَبْلَهُمْ، وَهَذَا ظَاهِرٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ القُرْآنَ مَعَ تَدَبُّرِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، فَإِنَّهُ يَجِدُ مِنْ فَضْلِ عِلْمِ القُرْآنِ مَا لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى العُمْيَانِ.

فَكَيْفَ يُظَنُّ مَعَ هَذَا بِالْمُسْلِمِينَ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِمْ فَسَادُ هَذَا الكَلَامِ الَّذِي ظَنَّهُ بِهِمْ هَؤُلَاءِ الجُهَّالُ:

وَيُقَالُ:

ثَانِيًا- الجَوَابُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّ المُسْلِمِينَ لَمْ يَدَّعُوا أَنَّ هَذِهِ الكُتُبَ حُرِّفَتْ بَعْدَ انْتِشَارِهَا، وَكَثْرَةِ النُّسَخِ بِهَا، وَلَكِنَّ جَمِيعَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى وُقُوعِ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِيهَا، وَكَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِهَا.

وَهَذَا مِمَّا تُسَلِّمُهُ النَّصَارَى جَمِيعُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالنُّبُوَّاتِ المُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ يُسَلِّمُونَ أَنَّ اليَهُودَ بَدَّلُوا كَثِيرًا مِنْ مَعَانِيهَا وَأَحْكَامِهَا.

وَمِمَّا تُسَلِّمُهُ النَّصَارَى فِي فِرَقِهِمْ، أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ تُخَالِفُ الأُخْرَى فِيمَا تُفَسِّرُ بِهِ الكُتُبَ المُتَقَدِّمَةَ، وَمِمَّا تُسَلِّمُهُ اليَهُودُ أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ النَّصَارَى تُفَسِّرُ التَّوْرَاةَ وَالنُّبُوَّاتِ المُتَقَدِّمَةَ

عَـلَى الإِنْجِيـلِ بِمَا يُخَالِفُ مَعَانِيهَـا وَأَنَّهَا بَدَّلَتْ أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ فَصَـارَ تَبْدِيلُ كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِي الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ مُتَّفَقًا عَلَيْهِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَاليَهُودِ، وَالنَّصَارَى.

وَأَمَّا تَغْيِيرُ بَعْضِ أَلْفَاظِهَا فَفِيهِ نِزَاعٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ.

وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُورُ أَنَّهُ بُدِّلَ بَعْضُ أَلْفَاظِهَا، كَمَا ذُكِرَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعِهِ.

الوَجْهُ الثَّانِي- أَنَّ قِيَاسَهُمْ كُتُبَهُمْ عَلَى القُرْآنِ وَأَنَّهُ كَمَا لَا تُسْمَعُ دَعْوَى التَّبْدِيلِ فِيهِ، فَكَذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ - قِيَاسٌ بَاطِلٌ فِي مَعْنَاهُ وَلَفْظِهِ.

أَمَّـا مَعْنَـاهُ: فَكُلُّ مَا أَجْمَعَ المُسْـلِمُونَ عَلَيْهِ مِـنْ دِينِهِمْ إِجْمَاعًا ظَاهِـرًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فَهُـوَ مَنْقُولٌ عَنِ الرَّسُـولِ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا، بَـلْ مَعْلُومًا بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِـهِ، فَإِنَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، وَالزَّكَاةَ، وَصِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَحَجَّ البَيْتِ العَتِيقِ، وَوُجُوبَ العَدْلِ وَالصِّدْقِ، وَتَحْرِيمَ الـشِّرْكِ وَالفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ، بَلْ وَتَحْرِيمَ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَالرِّبَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مَنْقُولٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا كَنَقْلِ أَلْفَاظِ القُرْآنِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ.

وَمِنْ هَذَا البَابِ عُمُومُ رِسَالَتِهِ ﷺ وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ أَهْلِ الكِتَابِ وَغَـيْرِ أَهْلِ الكِتَابِ، بَلْ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الإِنْسِ وَالجِنِّ وَأَنَّهُ كَانَ يُكَفِّرُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ لَمْ يَتَّبِعُـوا مَـا أَنْـزَلَ اللهُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ يُكَفِّرُ غَيْرَهُـمْ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ وَأَنَّـهُ جَاهَدَهُمْ وَأَمَرَ بِجِهَادِهِمْ.

فَالمُسْـلِمُونَ عِنْدَهُـمْ - مَنْقُولًا عَـنْ نَبِيِّهِمْ نَقْلًا مُتَوَاتِـرًا - ثَلَاثَةُ أُمُـورٍ: لَفْظُ القُرْآنِ وَمَعَانِيهِ الَّتِي أَجْمَعَ المُسْـلِمُونَ عَلَيْهَا وَالسُّنَّةُ المُتَوَاتِرَةُ وَهِيَ الحِكْمَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ غَيْرَ القُرْآنِ.

كَـمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البَقَرَة: ١٥١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النِّسَاء: ١١٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البَقَرَة: ٢٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأَحْزَاب: ٣٤].

وَبِذَلِكَ دَعَا الخَلِيلُ حَيْثُ قَالَ لَمَّا بَنَى هُوَ وَإِسْمَاعِيلُ الكَعْبَةَ بِأَرْضِ «فَارَانَ»(١) المَذْكُورَةِ فِي الكِتَابِ الأَوَّلِ(٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٢٧-١٢٩].

وَقَالَ ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(٣).

فَالْمُسْلِمُونَ عِنْدَهُمْ نَقْلٌ مُتَوَاتِرٌ عَنْ نَبِيِّهِمْ بِأَلْفَاظِ القُرْآنِ وَمَعَانِيهِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا وَبِالسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْهُ مِثْلُ: كَوْنِ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ وَالعِشَاءِ أَرْبَعًا، وَكَوْنِ الْمَغْرِبِ ثَلَاثَ رَكَعَاتٍ، وَكَوْنِ الصُّبْحِ رَكْعَتَيْنِ وَمِثْلُ الجَهْرِ فِي العِشَائَيْنِ وَالفَجْرِ وَالْمُخَافَتَةِ فِي الظُّهْرِ وَالعَصْرِ، وَمِثْلُ كَوْنِ الرَّكْعَةِ فِيهَا سَجْدَتَيْنِ، وَكَوْنِ الطَّوَافِ بِالبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعًا، وَرَمْيِ الجَمَرَاتِ كُلٌّ وَاحِدَةٍ سَبْعُ حَصَيَاتٍ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

---

(١) **فاران**: اسم عبراني وليس ألفه الأولى همزة - وهي جبال بني هاشم التي كان يتحنث في أحدها رسول الله ﷺ، وفيه فاتحة الوحي.

(٢) المقصود بالكتاب الأول: هو التوراة، وقد ورد ذكر فاران فيه لأول مرة في سفر التكوين الإصحاح الحادي والعشرون فقرة [٢١] في الحديث عن هاجر وابنها إسماعيل (وسكن في برية فاران)، وقد ذكرت فاران بعد ذلك كثيرًا من أشهرها قول موسى - في سفر التثنية. الإصحاح الثالث والثلاثون فقرة [٢] «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبال فاران».

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٣١) وأبو داود [٤٦٠٤] وهو صحيح وقد خرجته في «بذل الهمة في تعريف السنة» عن المقدام، وله شاهد من حديث طلحة بن علي.

وَأَيْضًا فَالْمُسْلِمُونَ يَحْفَظُونَ القُرْآنَ فِي صُدُورِهِمْ حِفْظًا يَسْتَغْنُونَ بِهِ عَنِ المَصَاحِفِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ رَبِّي قَالَ لِي: إِنِّي مُنَزِّلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ المَاءُ تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**»(١).

يَقُولُ: وَلَوْ غُسِلَ بِالمَاءِ مِنَ المَصَاحِفِ لَمْ يُغْسَلْ مِنَ القُلُوبِ كَالكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُ لَوْ عُدِمَتْ نُسَخُهَا لَمْ يُوجَدْ مَنْ يَنْقُلُهَا نَقْلًا مُتَوَاتِرًا مَحْفُوظَةً فِي الصُّدُورِ.

وَالقُرْآنُ مَا زَالَ مَحْفُوظًا فِي الصُّدُورِ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا حَتَّى لَوْ أَرَادَ مُرِيدٌ أَنْ يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنَ المَصَاحِفِ، وَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى صِبْيَانِ المُسْلِمِينَ لَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ غَيَّرَ المُصْحَفَ، لِحِفْظِهِمْ لِلْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَابِلُوهُ بِمُصْحَفٍ، وَأَنْكَرُوا ذَلِكَ.

وَأَهْلُ الكِتَابِ يَقْدِرُ الإِنْسَانُ مِنْهُمْ أَنْ يَكْتُبَ نُسَخًا كَثِيرًا مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، وَيُغَيِّرُ بَعْضَهَا، وَيَعْرِضُهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَا غَيَّرَ مِنْهَا إِنْ لَمْ يَعْرِضُوهُ عَلَى النُّسَخِ الَّتِي عِنْدَهُمْ.

وَلِهَذَا لَمَّا غَيَّرَ مَنْ نَسَخَ التَّوْرَاةَ رَاجَ ذَلِكَ عَلَى طَوَائِفَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَعْلَمُوا التَّغْيِيرَ.

وَأَيْضًا فَالْمُسْلِمُونَ لَهُمُ الأَسَانِيدُ المُتَّصِلَةُ بِنَقْلِ العُدُولِ الثِّقَاتِ لِدَقِيقِ الدِّينِ كَمَا نَقَلَ العَامَّةُ جَلِيلَهُ، وَلَيْسَ هَذَا لِأَهْلِ الكِتَابِ.

وَأَيْضًا فَمَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّ كُتُبَهُمْ مَكْتُوبَةٌ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى التَّغْيِيرِ مِنَ الكِتَابِ الوَاحِدِ بِاللُّغَةِ الوَاحِدَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يَحْفَظُهُ الخَلْقُ الكَثِيرُ فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَهُ.

---

(١) جزء من حديث عياض بن حمار الذي رواه مسلم [٢٨٦٥] وقد سبق تخريجه.

وَأَمَّا الكُتُبُ المَكْتُوبَةُ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ بَعْضَ النُّسَخِ المَوْجُودَةِ بِبَعْضِ الأَلْسِنَةِ غُيِّرَ بَعْضُ مَا فِيهَا لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ سَائِرُ أَهْلِ الأَلْسُنِ البَاقِيَةِ، بَلْ وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ سَائِرُ أَهْلِ النُّسَخِ الأُخْرَى فَالتَّغْيِيرُ فِيهَا مُمْكِنٌ كَمَا يُمْكِنُ فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ.

وَمَا ادَّعَوْهُ مِنْ تَعَذُّرِ جَمْعِ جَمِيعِ النُّسَخِ هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ مُتَعَذِّرًا لَمْ يُمْكِنِ الجَزْمُ بِاتِّفَاقِ جَمِيعِ النُّسَخِ لِوَاحِدٍ، حَتَّى يَشْهَدَ بِأَنَّهَا كُلَّهَا مُتَّفِقَةٌ لَفْظًا وَمَعْنًى، بَلْ إِمْكَانُ التَّغْيِيرِ فِيهَا أَيْسَرُ مِنْ إِمْكَانِ الشَّهَادَةِ بِاتِّفَاقِهَا.

وَلِهَذَا لَا يُمْكِنُ أَحَدًا تَغْيِيرُ القُرْآنِ، مَعَ كَوْنِهِ مَحْفُوظًا فِي القُلُوبِ مَنْقُولًا بِالتَّوَاتُرِ، مَعَ أَنَّا لَا نَشْهَدُ لِجَمِيعِ المَصَاحِفِ بِالِاتِّفَاقِ، بَلْ قَدْ يَقَعُ فِي بَعْضِ نُسَخِ المَصَاحِفِ مَا هُوَ غَلَطٌ يَعْلَمُهُ حُفَّاظُ القُرْآنِ، وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى اعْتِبَارِ ذَلِكَ بِمُصْحَفٍ آخَرَ.

وَتِلْكَ الكُتُبُ لَا يَحْفَظُ كُلًّا مِنْهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ التَّوَاتُرِ حَتَّى تُعْتَبَرَ النُّسَخُ بِهَا، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِيهِمْ مَوْجُودِينَ، كَانُوا هُمُ المَرْجِعُ لِلنَّاسِ فِيمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ إِذَا غَيَّرَ بَعْضُ النَّاسِ شَيْئًا مِنَ الكُتُبِ، فَلَمَّا انْقَطَعَتِ النُّبُوَّةُ فِيهِمْ أَسْرَعَ فِيهِمُ التَّغْيِيرُ.

فَلِهَذَا بَدَّلَ كَثِيرٌ مِنَ النَّصَارَى كَثِيرًا مِنْ دِينِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ رَفْعِهِ بِقَلِيلٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَصَارُوا يُبَدِّلُونَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَتَبْقَى فِيهِمْ طَائِفَةٌ مُتَمَسِّكَةٌ بِدِينِ الحَقِّ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ بَقِيَ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ عَلَى الدِّينِ الحَقِّ طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**»(١) مَاتُوا قُبَيْلَ مَبْعَثِهِ.

---

(١) حديث عياض بن حمار السابق.

وَقَدْ أَدْرَكَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ - وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَجُوسِيًّا - طَائِفَةً مِمَّنْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِدِينِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاحِدًا بِالمَوْصِلِ(١) وَآخَرَ بِنَصِيبِينَ(٢) وَآخَرَ بِعَمُّورِيَّةَ(٣).

وَكُلٌّ مِنْهُمْ يُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى دِينِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ آخِرُهُمْ: لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُبْعَثُ نَبِيٌّ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ جِهَةِ الحِجَازِ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هِجْرَةِ سَلْمَانَ إِلَيْهِ وَإِيمَانِهِ بِهِ.

فَالدِّينُ الَّذِي اجْتَمَعَ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُسْلِمُونَ اجْتِمَاعًا ظَاهِرًا مَعْلُومًا هُوَ مَنْقُولٌ عَنْ نَبِيِّهِمْ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا نَقَلُوا القُرْآنَ وَنَقَلُوا سُنَّتَهُ، وَسُنَّتُهُ مُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ مُبَيِّنَةٌ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى لَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فَبَيَّنَ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَفْظَهُ وَمَعْنَاهُ فَصَارَ مَعَانِي القُرْآنِ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا المُسْلِمُونَ اتِّفَاقًا ظَاهِرًا مِمَّا تَوَارَثَتْهُ الأُمَّةُ عَنْ نَبِيِّهَا كَمَا تَوَارَثَتْ عَنْهُ أَلْفَاظَ القُرْآنِ فَلَمْ يَكُنْ - وَلله الحَمْدُ - فِيمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ شَيْءٌ مُحَرَّفٌ مُبَدَّلٌ مِنَ المَعَانِي فَكَيْفَ بِأَلْفَاظِ تِلْكَ المَعَانِي.

فَإِنَّ نَقْلَهَا وَالِاتِّفَاقَ عَلَيْهَا أَظْهَرُ مِنْهُ فِي الأَلْفَاظِ فَكَانَ الدِّينُ الظَّاهِرُ لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِي اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِمَّا نَقَلُوهُ عَنْ نَبِيِّهِمْ لَفْظَهُ وَمَعْنَاهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ تَحْرِيفٌ وَلَا تَبْدِيلٌ لَا لِلَّفْظِ وَلَا لِلْمَعْنَى بِخِلَافِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ فَإِنَّ مِنْ أَلْفَاظِهَا مَا بَدَّلَ مَعَانِيَهُ وَأَحْكَامَهُ اليَهُودُ

---

(١) **الموصل**: المدينة العظيمة المشهورة التي هي إحدى قواعد الإسلام رفيعة البناء فسيحة الرقعة محط رحال الركبان، استحدثها (راوند بن بيوراسف) على طرف دجلة بالجانب الغربي، بها أبنية حسنة وقصور طيبة في الجانب الشرقي منها (تل التوبة)، وهو التل الذي اجتمع عليه قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لما عاينوا العذاب وتابوا وآمنوا، فكشف الله تعالى عنهم العذاب، وأهلها أهل خير وطباع لطيفة.

(٢) **نصيبين**: بفتح النون وكسر الصاد - مدينة عامرة بقرب سنجار من بلاد الجزيرة (بالعراق) على الطريق بين الموصل والشام، وقد جعل الروم حولها سورًا منيعًا ذكر أن لها ولقراها أربعين ألف بستان - وفتحها المسلمون صلحًا عام سبعة عشر من الهجرة النبوية.

(٣) **عمورية**: بفتح أوله وتشديد ثانيه، بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم حين سمع استنجاد شراة العلوية سنة ٢٢٣هـ، وفتح أنقرة بسبب أسر العلوية في قصة طويلة وكانت من أعظم فتوح الإسلام.

وَالنَّصَارَى أَوْ مَجْمُوعُهُمَا تَبْدِيلًا ظَاهِرًا مَشْهُورًا فِي عَامَّتِهِمْ كَمَا بَدَّلَتِ اليَهُودُ مَا فِي الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ مِنَ البِشَارَةِ بِالمَسِيحِ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وَمَا فِي التَّوْرَاةِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَأَمْرِهِ فِي بَعْضِ الأَخْبَارِ.

وَكَمَا بَدَّلَتِ النَّصَارَى كَثِيرًا مِمَّا فِي التَّوْرَاةِ وَالنُّبُوَّاتِ مِنَ الأَخْبَارِ وَمِنَ الشَّرَائِعِ الَّتِي لَمْ يُغَيِّرْهَا المَسِيحُ، فَإِنَّ مَا نَسَخَهُ اللهُ عَلَى لِسَانِ المَسِيحِ مِنَ التَّوْرَاةِ يَجِبُ اتِّبَاعُ المَسِيحِ فِيهِ.

وَأَمَّا مَا بُدِّلَ بَعْدَ المَسِيحِ مِثْلُ اسْتِحْلَالِ لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ وَلَمْ يُبِحْهُ المَسِيحُ وَمِثْلُ إِسْقَاطِ الخِتَانِ وَمِثْلُ الصَّلَاةِ إِلَى المَشْرِقِ (وَزِيَادَةِ الصَّوْمِ وَنَقْلِهِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى زَمَانٍ) وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِي الكَنَائِسِ وَتَعْظِيمِ الصَّلِيبِ وَاتِّبَاعِ الرَّهْبَانِيَّةِ، فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا شَرَائِعُ لَمْ يَشْرَعْهَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لَا المَسِيحُ، وَلَا غَيْرُهُ خَالَفُوا بِهَا شَرْعَ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الأَنْبِيَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْرَعَهَا اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ.

الوَجْهُ الثَّالِثُ- أَنَّ القُرْآنَ قَدْ ثَبَتَ بِالنَّقْلِ المُتَوَاتِرِ المَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ - لِلْمُوَافِقِ وَالمُخَالِفِ - أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ يَقُولُ إِنَّهُ كَلَامُ اللهِ لَا كَلَامُهُ وَأَنَّهُ مُبَلِّغٌ لَهُ عَنِ اللهِ وَكَانَ يُفَرِّقُ بَيْنَ القُرْآنِ وَبَيْنَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ مِنَ السُّنَّةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ فِيهِ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا.

فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَ أُمَّتَهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الخَلِيلِ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٨-١٢٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»(١)، فَكَانَ يُعَلِّمُ أُمَّتَهُ الكِتَابَ وَهُوَ القُرْآنُ العَزِيزُ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ لَا كَلَامُهُ وَهُوَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وَهُوَ الَّذِي شَرَّعَ لِأُمَّتِهِ أَنْ تَقْرَأَهُ فِي صَلَاتِهِمْ فَلَا تَصِحُّ صَلَاةٌ إِلَّا بِهِ وَعَلَّمَهُمْ مَعَ ذَلِكَ الحِكْمَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ وَفَرَّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ القُرْآنِ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنَّ القُرْآنَ مُعْجِزٌ.

وَمِنْهَا: أَنَّ القُرْآنَ هُوَ الَّذِي يُقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ دُونَهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّ أَلْفَاظَ القُرْآنِ العَرَبِيَّةَ مُنَزَّلَةٌ عَلَى تَرْتِيبِ الآيَاتِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُغَيِّرَهَا بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ وَلَكِنْ يَجُوزُ تَفْسِيرُهَا بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَتَرْجَمَتُهَا بِغَيْرِ العَرَبِ.

وَأَمَّا تِلَاوَتُهَا بِالعَرَبِيِّ بِغَيْرِ لَفْظِهَا، فَلَا يَجُوزُ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ، بِخِلَافِ مَا عَلَّمَهُمْ مِنَ الحِكْمَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ حُكْمُ أَلْفَاظِهَا حُكْمَ أَلْفَاظِ القُرْآنِ

وَمِنْهَا: أَنَّ القُرْآنَ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا طَاهِرٌ، وَلَا يَقْرَأُهُ الجُنُبُ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ سُنَّتُهُ عِنْدَ جَمَاهِيرِ أُمَّتِهِ، بِخِلَافِ مَا لَيْسَ بِقُرْآنٍ.

---

(١) سبق تخريجه.

وَالقُـرْآنُ تَلَقَّتْـهُ الأُمَّةُ مِنْهُ حِفْظًا فِي حَيَاتِهِ، وَحَفِظَ القُـرْآنَ جَمِيعَهُ فِي حَيَاتِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمَا مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَّا مَنْ حَفِظَ بَعْضَهُ وَكَانَ يَحْفَظُ بَعْضُهُمْ مَا لَا يَحْفَظُهُ الآخَرُ فَهُـوَ جَمِيعُهُ مَنْقُولٌ سَـمَاعًا مِنْهُ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ وَهُوَ يَقُولُ إِنَّهُ مُبَلِّـغٌ لَهُ عَنِ اللهِ وَهُوَ كَلَامُ اللهِ لَا كَلَامُهُ.

وَفِي القُـرْآنِ - مَـا يُبَـيِّنُ أَنَّـهُ كَلَامُ اللهِ - نُصُـوصٌ كَثِـيرَةٌ وَكَانَ الَّذِيـنَ رَأَوْا مُحَمَّـدًا ﷺ وَنَقَلُـوا مَـا عَايَنُوهُ مِنْ مُعْجِزَاتِـهِ وَأَفْعَالِـهِ وَشَرِيعَتِهِ وَمَا سَـمِعُوهُ مِنَ القُرْآنِ وَحَدِيثِهِ أُلُوفًا مُؤَلَّفَةً أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ رَأَوْهُ وَآمَنُوا بِهِ.

وَأَمَّـا الأَنَاجِيـلُ الَّتِي بِأَيْدِي النَّصَارَى: فَهِـيَ أَرْبَعَةُ أَنَاجِيلَ إِنْجِيـلُ مَتَّى وَيُوحَنَّا[1] وَلُوقَا وَمَرْقُسَ، وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ لُوقَا وَمَرْقُسَ لَمْ يَرَيَا المَسِـيحَ، وَإِنَّمَا رَآهُ مَتَّى وَيُوحَنَّا، وَأَنَّ هَذِهِ المَقَالَاتِ الأَرْبَعَةَ الَّتِي يُسَـمُّونَهَا الإِنْجِيلَ، وَقَدْ يُسَـمُّونَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِنْجِيلًا، إِنَّمَا كَتَبَهَا هَؤُلَاءِ بَعْدَ أَنْ رُفِعَ المَسِيحُ، فَلَمْ يَذْكُرُوا فِيهَا أَنَّهَا كَلَامُ اللهِ، وَلَا أَنَّ المَسِيحَ، بَلَّغَهَا عَنِ اللهِ، بَلْ نَقَلُوا فِيهَا أَشْيَاءَ مِنْ كَلَامِ المَسِيحِ، وَأَشْيَاءَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَمُعْجِزَاتِهِ.

وَذَكَـرُوا أَنَّهُـمْ لَمْ يَنْقُلُوا كُلَّ مَا سَـمِعُوهُ مِنْـهُ وَرَأَوْهُ فَكَانَتْ مِنْ جِنْسِ مَـا يَرْوِيهِ أَهْلُ الحَدِيثِ وَالسِّيَرِ وَالمَغَازِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ الَّتِي لَيْسَتْ قُرْآنًا.

فَالأَنَاجِيلُ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ شِـبْهُ كِتَابِ السِّيرَةِ وَكُتُبِ الحَدِيثِ أَوْ مِثْلُ هَذِهِ الكُتُبِ وَإِنْ كَانَ غَالِبُهَا صَحِيحًا.

---

(١) **هـو يوحنا بـن زبدي الصياد الحواري**. أحد تلاميذ المسيح عليه السلام وصاحـب الإنجيل - الذي يُنسب إليه - لكن نسبة هذا الإنجيل قد أثير حولها الشكوك وقد نفي في عهد الاضطهاد ثم عاد إلى أفسس وأخذ يبشر بالمسيحية، وهو أحد الثلاثة الذي اصطفاهم المسيح بطرس ويعقوب ويوحنا، وكان يسمى بالتلميذ الحبيب، وظل في دعوته للمسيحية حتى مات.

وَمَا قَالَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ مُبَلِّغٌ لَهُ عَنِ اللهِ يَجِبُ فِيهِ تَصْدِيقُ خَبَرِهِ وَطَاعَةُ أَمْرِهِ كَمَا قَالَهُ الرَّسُولُ مِنَ السُّنَّةِ فَهُوَ يُشْبِهُ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ مِنَ السُّنَّةِ فَإِنَّ مِنْهَا مَا يَذْكُرُ الرَّسُولُ أَنَّهُ قَوْلُ اللهِ كَقَوْلِهِ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُ بِالحَرْبِ**»(١) وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا مَا يَقُولُهُ هُوَ وَلَكِنْ هُوَ أَيْضًا مِمَّا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، فَهَكَذَا مَا يُنْقَلُ فِي الإِنْجِيلِ وَهُوَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ فَإِنَّهُ كَانَ أَمْرًا مِنَ المَسِيحِ فَأَمْرُ المَسِيحِ أَمْرُ اللهِ وَمَنْ أَطَاعَ المَسِيحَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ.

وَمَا أَخْبَرَ بِهِ المَسِيحُ عَنِ الغَيْبِ فَاللهُ أَخْبَرَهُ بِهِ فَإِنَّهُ مَعْصُومٌ أَنْ يَكْذِبَ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ.

وَإِذَا كَانَ الإِنْجِيلُ يُشْبِهُ السُّنَّةَ المُنَزَّلَةَ فَإِنَّهُ يَقَعُ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهَا غَلَطٌ كَمَا يَقَعُ فِي كُتُبِ السِّيرَةِ، وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ، ثُمَّ هَذِهِ الكُتُبُ قَدِ اشْتُهِرَتْ وَاسْتَفَاضَتْ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا - بَعْدَ اشْتِهَارِهَا وَكَثْرَةِ النُّسَخِ بِهَا - أَنْ يُبَدِّلَهَا كُلَّهَا.

لَكِنْ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهَا غَلَطٌ وَقَعَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تُشْتَهَرَ، فَإِنَّ المُحَدِّثَ - وَإِنْ كَانَ عَدْلًا - فَقَدْ يَغْلَطُ، لَكِنْ مَا تَلَقَّاهُ المُسْلِمُونَ بِالقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ وَالعَمَلِ مِنَ الأَخْبَارِ فَهُوَ مِمَّا يَجْزِمُ جُمْهُورُ المُسْلِمِينَ بِصِدْقِهِ عَنْ نَبِيِّهِمْ.

هَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ وَعَامَّةِ الطَّوَائِفِ كَجُمْهُورِ الطَّوَائِفِ الأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الكَلَامِ مِنَ الكِلَابِيَّةِ(٢) وَالكَرَامِيَّةِ(٣) وَالأَشْعَرِيَّةِ(٤) وَغَيْرِهِمْ، لَكِنْ ظَنَّ بَعْضُ أَهْلِ

---

(١) أخرجه البخاري [٦٥٠٢] وابن حبان [٣٤٧] عن أبي هريرة.

(٢) **الكلابية**: هم أصحاب عبد الله بن سعيد بن كلاب من أهل البصرة وكان نصرانيًا فأسلم وفارق قومه كان يقول هو وفرقته: إنه ليس لله كلام مسموع وأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يسمع من الله شيئًا مما أداه إلى رسله وأن الذي أنزل على الأنبياء حكاية كلام الله.

(٣) سبق التعريف بهم.

(٤) **الأشعرية**: هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤هـ، وهو منتسب إلى أبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - ومن مذهبه أن كل موجود يصح أن يرى، فإن المصحح

الـكَلَام أَنَّـهُ لَا يَجْزِمُ بِصِدْقِهَا لِكَوْنِ الوَاحِدِ قَدْ يَغْلَـطُ أَوْ يَكْذِبُ، وَهَذَا الظَّنُّ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ فِي الوَاحِدِ الَّذِي لَمْ يُعْرَفْ صِدْقُهُ وَضَبْطُهُ

أَمَّـا إِذَا عُرِفَ صِدْقُهُ وَضَبْطُهُ، إِمَّـا بِالْمُعْجِزَاتِ كَالأَنْبِيَاءِ وَإِمَّـا بِتَصْدِيقِ النَّبِيِّ لَهُ فِيمَا يَقُـولُ وَإِمَّا بِاتِّفَـاقِ الأُمَّةِ المَعْصُومَةِ عَلَى صِدْقِـهِ وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَى العَمَلِ بِخَـبَرِهِ، أَوِ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى قَبُولِ خَبَرِهِ وَإِقْرَارِهِ، وَذَكَرَهُ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ، أَوْ ظُهُورِ دَلَائِلَ وَشَـوَاهِدَ وَقَرَائِنَ احْتَفَّتْ بِخَـبَرِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى صِـدْقِ الْمُخْبِرِ، فَهَذِهِ يَجِبُ مَعَهَا الحُكْمُ بِصِدْقِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكْـذِبْ وَلَمْ يَغْلَـطْ، وَإِنْ كَانَ خَـبَرُهُ لَوْ تَجَرَّدَ عَنْ تِلْكَ الدَّلَائِلِ أَمْكَـنَ كَذِبُهُ أَوْ غَلَطُهُ كَمَا أَنَّ الخَـبَرَ الْمُجَـرَّدَ لَا يُجْزَمُ بِكَذِبِهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِمَّا قِيَامُ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ قَاطِعٍ أَوْ سَـمْعِيٍّ قَاطِعٍ عَلَى أَنَّهُ بِخِلَافِ مُخْبِرِهِ فَيُجْزَمُ بِبُطْلَانِ خَبَرِهِ وَحِينَئِذٍ فَالْمُخْبِرُ إِمَّا كَاذِبًا أَوْ غَالِطًا، وَقَدْ يُعْلَمُ أَحَدُهُمَا بِدَلِيلٍ.

فَالْمُسْـلِمُونَ عِنْدَهُمْ مِنَ الأَخْبَارِ عَنْ نَبِيِّهِمْ مَا هُوَ مُتَوَاتِرٌ وَمَا اتَّفَقَتِ الأُمَّةُ المَعْصُومَةُ عَـلَى تَصْدِيقِـهِ، وَمَا قَامَتْ دَلَائِلُ صِدْقِهِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الجِهَةِ مِثْلُ: أَنْ يُخْبِرَ وَاحِدٌ أَوِ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَـةٌ بِحَضْرَةِ جَمْعٍ كَثِيرٍ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَوَاطَئُـوا عَلَى الكَذِبِ بِخَبَرٍ يَقُولُونَ إِنَّ أُولَئِكَ عَايَنُوهُ وَشَـاهَدُوهُ فَيُقِرُّونَهُـمْ عَلَى هَذَا وَلَا يُكَذِّبُ بِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَيُعْلَمُ بِالعَـادَةِ الْمُطَّرِدَةِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَاذِبًـا لَامْتَنَـعَ اتِّفَاقُ أَهْلِ التَّوَاتُرِ عَلَى السُّـكُوتِ عَنْ تَكْذِيبِهِ كَمَا يَمْتَنِـعُ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى تَعَمُّدِ الكَذِبِ.

وَإِذَا نَقَـلَ الوَاحِـدُ وَالِاثْنَانِ مَا تُوجِبُ العَادَةُ اشْـتِهَارَهُ وَظُهُـورَهُ وَلَمْ يَظْهَرْ، وَنَقَلُوهُ مُسْتَخْفِينَ بِنَقْلِهِ لَمْ يَنْقُلُوهُ عَلَى رُءُوسِ الجُمْهُورِ، عُلِمَ أَنَّهُمْ كَذَبُوا فِيهِ.

للرؤيا إنما هو الوجود والباري تعالى موجود فيصح أن يرى، وقد ورد السمع بأن المؤمنين يرونه في الآخرة. وقال أيضًا: الإيمان هو التصديق بالجنان وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه.

وَدَلَائِلُ صِدْقِ المُخْبِرِ وَكَذِبِهِ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا، وَلَكِنَّ المَقْصُودَ هُنَا أَنَّ المُسْلِمِينَ تَوَاتَرَ عِنْدَهُمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ أَلْفَاظُ القُرْآنِ وَمَعَانِيهِ المُجْمَعُ عَلَيْهَا وَالسُّنَّةُ المُتَوَاتِرَةُ وَعِنْدَهُمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةُ الصِّدْقِ بِطُرُقٍ مُتَنَوِّعَةٍ كَتَصْدِيقِ الأُمَّةِ المَعْصُومَةِ وَدَلَالَةِ العَادَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَهُمْ يَحْفَظُونَ القُرْآنَ فِي صُدُورِهِمْ لَا يَحْتَاجُونَ فِي حِفْظِهِ إِلَى كِتَابٍ مَسْطُورٍ، فَلَوْ عُدِمَتِ المَصَاحِفُ مِنَ الأَرْضِ لَمْ يَقْدَحْ ذَلِكَ فِيمَا حَفِظُوهُ.

بِخِلَافِ أَهْلِ الكِتَابِ فَإِنَّهُ لَوْ عُدِمَتْ نُسَخُ الكُتُبِ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِهِ نَقْلٌ مُتَوَاتِرٌ بِأَلْفَاظِهَا إِذْ لَا يَحْفَظُهَا - إِنْ حَفِظَهَا - إِلَّا قَلِيلٌ لَا يُوثَقُ بِحِفْظِهِمْ فَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ بَعْدَ انْقِطَاعِ النُّبُوَّةِ عَنْهُمْ يَقَعُ فِيهِمْ مِنْ تَبْدِيلِ الكُتُبِ إِمَّا تَبْدِيلِ بَعْضِ أَحْكَامِهَا وَمَعَانِيهَا، وَإِمَّا تَبْدِيلِ بَعْضِ أَلْفَاظِهَا مَا لَمْ يَقُومُوا بِتَقْوِيمِهِ.

وَهَذَا لَا يُوجَدُ فِيهِمِ الإِسْنَادُ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا لَهُمْ كَلَامٌ فِي نَقَلَةِ العِلْمِ وَتَعْدِيلِهِمْ وَجَرْحِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِ نَقَلَةِ العِلْمِ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا قَامَ دَلِيلٌ سَمْعِيٌّ وَلَا عَقْلِيٌّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى خَطَأٍ، بَلْ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى الخَطَأِ لَمَّا كَذَّبُوا المَسِيحَ.

ثُمَّ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِذَا كَانَتِ الكُتُبُ المَنْقُولَةُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ مِنْ جِنْسِ الكُتُبِ المَنْقُولَةِ عَنْ مُحَمَّدٍ وَلَمْ تَكُنْ مُتَوَاتِرَةً عَنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ تَصْدِيقُ غَيْرِ المَعْصُومِ حُجَّةً لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ بِالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالكَذِبِ مَا عِنْدَ المُسْلِمِينَ.

فَهَذِهِ الأَنَاجِيلُ الَّتِي بِأَيْدِي النَّصَارَى مِنْ هَذَا الجِنْسِ فِيهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ أَقْوَالِ المَسِيحِ وَأَفْعَالِهِ وَمُعْجِزَاتِهِ وَفِيهَا مَا هُوَ غَلَطٌ عَلَيْهِ، بِلَا شَكٍّ، وَالَّذِي كَتَبَهَا فِي الأَوَّلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يُتَّهَمُ بِتَعَمُّدِ الكَذِبِ فَإِنَّ الوَاحِدَ وَالِاثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ وَالأَرْبَعَةَ لَا يَمْتَنِعُ وُقُوعُ الغَلَطِ وَالنِّسْيَانِ مِنْهُمْ لَا سِيَّمَا مَا سَمِعَهُ الإِنْسَانُ وَرَآهُ ثُمَّ حَدَّثَ بِهِ بَعْدَ سِنِينَ كَثِيرَةٍ، فَإِنَّ الغَلَطَ فِي مِثْلِ هَذَا كَثِيرٌ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أُمَّةٌ مَعْصُومَةٌ يَكُونُ تَلَقِّيهَا لَهَا بِالقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ مُوجِبًا لِلْعِلْمِ بِهَا لِئَلَّا تَجْتَمِعَ الأُمَّةُ المَعْصُومَةُ عَلَى الخَطَأِ وَالحَوَارِيُّونَ كُلُّهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا.

وَقِصَّةُ الصَّلْبِ مِمَّا وَقَعَ فِيهَا الِاشْتِبَاهُ وَقَدْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ المَصْلُوبَ لَمْ يَكُنْ هُوَ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ شَبَهَهُ وَهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ المَسِيحُ وَالحَوَارِيُّونَ لَمْ يَرَ أَحَدٌ مِنْهُمُ المَسِيحَ مَصْلُوبًا، بَلْ أَخْبَرَهُمْ بِصَلْبِهِ بَعْضُ مَنْ شَهِدَ ذَلِكَ مِنَ اليَهُودِ.

فَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُونَ: إِنَّ أُولَئِكَ تَعَمَّدُوا الكَذِبَ وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَقُولُ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وَهَذَا كَانَ جُمْهُورُ المُسْلِمِينَ يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ عَنْ أُولَئِكَ، وَمَنْ قَالَ بِالأَوَّلِ جَعَلَ الضَّمِيرَ فِي (شُبِّهَ لَهُمْ) عَنِ السَّامِعِينَ لِخَبَرِ أُولَئِكَ فَإِذَا جَازَ أَنْ يَغْلَطُوا فِي هَذَا، وَلَمْ يَكُونُوا مَعْصُومِينَ فِي نَقْلِهِ جَازَ أَنْ يَغْلَطُوا فِي بَعْضِ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْهُ وَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يَقْدَحُ فِي رِسَالَةِ المَسِيحِ، وَلَا فِيمَا تَوَاتَرَ نَقْلُهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، سَوَاءٌ صُلِبَ أَوْ لَمْ يُصْلَبْ، وَمَا تَوَاتَرَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ، سَوَاءٌ صُلِبَ أَوْ لَمْ يُصْلَبْ.

وَالحَوَارِيُّونَ مُصَدَّقُونَ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ عَنْهُ لَا يُتَّهَمُونَ بِتَعَمُّدِ الكَذِبِ عَلَيْهِ لَكِنْ إِذَا غَلِطَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضِ مَا يَنْقُلُهُ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ مَعْلُومًا لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الَّذِي غَلِطَ فِيهِ مِمَّا تَبَيَّنَ غَلَطُهُ فِيهِ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّصَارَى فِي عَامَّةِ مَا وَقَعَ فِيهِ الغَلَطُ حَتَّى فِي الصَّلْبِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ المَصْلُوبُ لَمْ يَكُنِ المَسِيحَ، بَلِ الشَّبَهَ كَمَا يَقُولُهُ المُسْلِمُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّ بِعُبُودِيَّتِهِ للهِ وَيُنْكِرُ الحُلُولَ وَالِاتِّحَادَ(١) كَالأَرْيُوسِيَّةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ الِاتِّحَادَ وَإِنْ أَقَرَّ بِالحُلُولِ كَالنَّسْطُورِيَّةِ.

---

(١) الحلول والاتحاد:

الحلول: الصوفية يشيرون به إلى الصلة بين الرب (اللاهوت) والعبد (الناسوت) كما عند النساطرة واليعاقبة والملكانية من الفرق النصرانية، ويقال: إن القائلين بالحلول (الحلولية) كغلاة الشيعة والباطنية والدروز من الفرق، والحلاج من الصوفية.

والاتحاد: هو عقيدة الملكانية أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية، قالوا: (إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنًا بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن).

وَأَمَّا الشَّرَائِعُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا فَعُلَمَاؤُهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَكْثَرَهَا لَيْسَ عَنِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَالمَسِيحُ لَمْ يَشْرَعْ لَهُمُ الصَّلَاةَ إِلَى المَشْرِقِ، وَلَا الصِّيَامَ الخَمْسِينَ(١)، وَلَا جَعَلَهُ فِي زَمَنِ الرَّبِيعِ، وَلَا عِيدَ المِيلَادِ(٢)، وَالغِطَاسِ(٣)، وَعِيدَ الصَّلِيبِ(٤)، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَعْيَادِهِمْ، بَلْ أَكْثَرُ ذَلِكَ مِمَّا ابْتَدَعُوهُ بَعْدَ الحَوَارِيِّينَ، مِثْلَ عِيدِ الصَّلِيبِ فَإِنَّهُ مِمَّا ابْتَدَعَتْهُ «هِيلَانَةُ الحَرَّانِيَّةُ»(٥) أُمُّ قُسْطَنْطِينَ وَفِي زَمَنِ قُسْطَنْطِينَ غَيَّرُوا كَثِيرًا مِنْ دِينِ المَسِيحِ وَالعَقَائِدِ وَالشَّرَائِعِ فَابْتَدَعُوا الأَمَانَةَ الَّتِي هِيَ عَقِيدَةُ إِيمَانِهِمْ وَهِيَ عَقِيدَةٌ لَمْ يَنْطِقْ بِهَا شَيْءٌ مِنْ كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ الَّتِي هِيَ عِنْدَهُمْ، وَلَا هِيَ مَنْقُولَةٌ عَنْ أَحَدِ الأَنْبِيَاءِ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الحَوَارِيِّينَ الَّذِينَ صَحِبُوا المَسِيحَ، بَلِ ابْتَدَعَهَا لَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ أَكَابِرِهِمْ قَالُوا كَانُوا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ.

وَاسْتَنَدُوا فِي ذَلِكَ إِلَى أَلْفَاظٍ مُتَشَابِهَةٍ فِي الكُتُبِ وَفِي الكُتُبِ أَلْفَاظٌ مُحْكَمَةٌ تُنَاقِضُ مَا ذَكَرُوهُ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَكَذَلِكَ عَامَّةُ شَرَائِعِهِمُ الَّتِي وَضَعُوهَا فِي كِتَابِ

---

(١) **صيام الخمسين**: في التقويم القبطي تعني الخماسين – الخمسين يومًا التالية لعيد القيامة وأولها شم النسيم، ويوم شم النسيم ليس ثابتًا لأنه تابع للأشهر القبطية.

(٢) **عيد الميلاد**: ذكرى مولد المسيح يلي صيام أربعين يومًا وهو يوم ٢٥ ديسمبر بالتقويم الميلادي (الجريجوري) ويوم ٢٩ كهيك بالتقويم القبطي، احتفل به قبل سنة ٢٠٠م ثم انتشر وأصبح شائعًا وشعبيًا في القرون الوسطى.

(٣) **عيد الغطاس**: عند المسيحيين احتفال ديني بتعميد السيد المسيح في نهر الأردن – ١٩ يناير.

(٤) **عيد الصليب**: لم أجد له ذكرًا في قاموس الكتاب المقدس ولا في الموسوعة العربية التي تحدثت عن معظم الأعياد.
وقد ذكر ابن القيم: أن النصارى اتخذوا الوقت الذي عثرت فيه هيلانة على الصليب عيدًا، وسموه عيد الصليب.

(٥) **هيلانة**: من أهل الرهاء كانت امرأة جميلة وقد تنصرت على يد أب في الرهاء، وتعلمت وقرأت الكتب فخطبها الملك قسطنطين من أبيها فزوجها له فولدت له ابنه الملك قسطنطين الكبير وقد عاشت ثمانين سنة.

«القَانُـونِ»[١] بَعْضُهَا مَنْقُـولٌ عَنِ الأَنْبِيَاءِ وَبَعْضُهَـا مَنْقُولٌ عَنِ الحَوَارِيِّـينَ وَكَثِيرٌ مِنْهَا مِمَّا ابْتَدَعُـوهُ لَيْسَـتْ مَنْقُولَةً عَـنْ أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَـاءِ وَلَا عَـنِ الحَوَارِيِّينَ وَهُمْ يُجَـوِّزُونَ لِأَكَابِرِ أَهْـلِ العِلْمِ وَالدِّينِ أَنْ يُغَيِّرُوا مَا رَأَوْهُ مِـنَ الشَّرَائِعِ وَيَضَعُوا شَرْعًا جَدِيدًا فَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ شَرْعِهِمْ مُبْتَدَعًا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا شَرَعَهُ نَبِيٌّ.

❁❁❁

(١) **قانون الإيمان**: مجموعة العقائد المسيحية الأساسية ولها عدة ملخصات كان لها شأن كبير في تطور المسيحية وأهمها قانون نيقية، ويعتبر مراجعة للقانون الذي وضعه مجمع نيقية ٣٢٥ لا قرار المسائل التي أثارها أوريوس.

obeikandl.com

فَصْلٌ

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: كَيْفَ يُمْكِنُ تَغْيِيرُ كُتُبِنَا الَّتِي هِيَ مَكْتُوبَةٌ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا وَفِي كُلِّ لِسَانٍ مِنْهَا كَذَا وَكَذَا أَلْفِ مُصْحَفٍ وَمَضَى عَلَيْهَا إِلَى مَجِيءِ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِنْ سِتِّمِائَةِ سَنَةٍ؟

فَيُقَالُ: أَمَّا بَعْدَ انْتِشَارِهَا هَذَا الِانْتِشَارَ فَلَمْ يَقُلِ الْمُسْلِمُونَ، بَلْ وَلَا طَائِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْهُمْ إِنَّ أَلْفَاظَ جَمِيعِ كُلِّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ غُيِّرَتْ لَكِنَّ جُمْهُورَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ فِي أَلْفَاظِهَا مَا غُيِّرَ إِنَّمَا يَدَّعُونَ تَغْيِيرَ بَعْضِ أَلْفَاظِهَا قَبْلَ الْمَبْعَثِ، أَوْ تَغْيِيرَ بَعْضِ النُّسَخِ بَعْدَ الْمَبْعَثِ لَا تَغْيِيرَ جَمِيعِ النُّسَخِ فَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ التَّغْيِيرَ وَقَعَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ إِنَّ مِنْهَا مَا غُيِّرَ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا يَقُولُونَ إِنَّهُ غُيِّرَ كُلُّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ، بَلْ يَقُولُونَ غُيِّرَ بَعْضُ النُّسَخِ دُونَ البَعْضِ وَظَهَرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ النُّسَخُ الْمُبَدَّلَةُ دُونَ الَّتِي لَمْ تُبَدَّلْ.

وَالنُّسَخُ الَّتِي لَمْ تُبَدَّلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ نَفْيُهُ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ بِكُلِّ لِسَانٍ مُطَابِقٌ لَفْظُهَا سَائِرَ النُّسَخِ بِسَائِرِ الأَلْسِنَةِ إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِذَلِكَ وَهُمْ قَدْ سَلَّمُوا أَنَّ أَحَدًا لَا يُمْكِنُهُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا مَنْ ذَكَرَ أَنَّ التَّغْيِيرَ وَقَعَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ فَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا أُخِذَتِ الأَنَاجِيلُ عَنْ أَرْبَعَةٍ، اثْنَانِ مِنْهُمْ لَمْ يَرَيَا المَسِيحَ، بَلْ إِنَّمَا رَآهُ اثْنَانِ مِنْ نَقَلَةِ الإِنْجِيلِ مَتَّى وَيُوحَنَّا.

وَمَعْلُومٌ إِمْكَانُ التَّغَيُّرِ فِي ذَلِكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا فَمَعْلُومٌ بِاتِّفَاقِ النَّصَارَى أَنَّ المَسِيحَ لَمْ يَكُنْ يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالعِبْرِيَّةِ كَسَائِرِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّهُ كَانَ مَخْتُونًا خُتِنَ بَعْدَ السَّابِعِ كَمَا

يَخْتِنُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي إِلَى قِبْلَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ يُصَلِّي إِلَى الشَّرْقِ وَلَا أَمَرَ بِالصَّلَاةِ إِلَى الشَّرْقِ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ لِسَانَهُ كَانَ سُرْيَانِيًّا كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ فَهُوَ غَالِطٌ فَالكَلَامُ المَنْقُولُ عَنْهُ فِي الأَنَاجِيلِ إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِهِ عِبْرِيًّا ثُمَّ تُرْجِمَ مِنْ تِلْكَ اللُّغَةِ إِلَى غَيْرِهَا.

وَالتَّرْجَمَةُ يَقَعُ فِيهَا الغَلَطُ كَثِيرًا كَمَا وَجَدْنَا فِي زَمَانِنَا مَنْ يُتَرْجِمُ التَّوْرَاةَ مِنَ العِبْرِيَّةِ إِلَى العَرَبِيَّةِ وَيَظْهَرُ فِي التَّرْجَمَةِ مِنَ الغَلَطِ مَا يَشْهَدُ بِهِ الحُذَّاقُ الصَّادِقُونَ مِمَّنْ يَعْرِفُ اللُّغَتَيْنِ.

وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: إِنَّمَا كُتِبَتْ بِأَرْبَعِ لُغَاتٍ: (بِالعِبْرِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ وَاليُونَانِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ)(١).

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّهَا كُتِبَتْ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لُغَةً، فَهَذَا إِنْ كَانَ صَحِيحًا فَإِنَّمَا كُتِبَتْ بَعْدَ أَنْ كُتِبَتْ تِلْكَ الأَرْبَعَةُ فَإِذَا كَانَ الغَلَطُ وَقَعَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ تِلْكَ الأَرْبَعَةِ، لَمْ يَرْفَعْهُ بَعْدَ ذَلِكَ كِتَابَتُهَا بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لُغَةً، فَإِنَّ المُسْلِمِينَ لَا يَقُولُونَ: إِنَّهَا كُتِبَتْ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لُغَةً غُيِّرَ لَفْظُهَا فِي جَمِيعِ الأَلْسُنِ (لِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لُغَةً فِي كُلِّ نُسْخَةٍ مِنْ ذَلِكَ).

وَإِنَّمَا يُقَالُ التَّغْيِيرُ وَقَعَ قَبْلَ ذَلِكَ كَمَا يُقَالُ فِي سَائِرِ مَا وَرَدَ عَنِ المَسِيحِ وَمُوسَى (وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ - مِنَ الحَدِيثِ مِثْلَ سِيرَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَأَحَادِيثِ السُّنَنِ، وَالمَسَانِدِ المَأْثُورَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّ فِي العَالَمِ بِكُلِّ كِتَابٍ مِنْهَا نُسَخٌ كَثِيرَةٌ،

---

(١) هذه اللغات التي بين القوسين:

العبرية: هي اللغة التي كتب بها متى إنجيله ولم يعرف إلا باليونانية وجهل المترجم، وقد اتفق جمهورهم على أنه كتب إنجيله بالعبرية أو السريانية.

الرومية: هي إحدى اللغات التي كتب بها بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقص عن مرقص بالرومية في مدينة رومية ونسبه إلى «مرقص».

اليونانية: هل اللغة التي كتب بها يوحنا إنجيله في جزيرة يقال لها بطمس من أرض آسيا.

السريانية: هي إحدى اللغات التي قيل بأن متى كتب بها إنجيله.

لَا يُمْكِنُ أَنْ يُغَيَّرَ مِنْهَا فَصْلٌ طَوِيلٌ، وَلَكِنْ فِي نَفْسِ السِّيرَةِ وَقَعَ غَلَطٌ فِي مَوَاضِعَ وَأَحَادِيثَ وَقَعَتْ فِي السُّنَنِ هِيَ غَلَطٌ فِي الأَصْلِ (فَاشْتِهَارُ النُّسَخِ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ وُقُوعَ الغَلَطِ فِي الأَصْلِ) وَهَذِهِ كُتُبُ التَّفْسِيرِ وَالفِقْهِ وَالدَّقَائِقِ، مَا مِنْ كِتَابٍ إِلَّا وَبِهِ نُسَخٌ كَثِيرَةٌ فِي العَالَمِ لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ فَصْلٍ طَوِيلٍ مِنْهَا وَفِيهَا أَحَادِيثُ غَلَطٌ فِي الأَصْلِ.

وَالأَنَاجِيلُ الَّتِي بِأَيْدِي النَّصَارَى تُشْبِهُ هَذَا، وَلِهَذَا أُمِرُوا أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا فِيهَا فَإِنَّ فِيهَا أَحْكَامَ اللهِ وَعَامَّةُ مَا فِيهَا مِنَ الأَحْكَامِ لَمْ يُبَدَّلْ لَفْظُهُ وَإِنَّمَا بُدِّلَتْ بَعْضُ أَلْفَاظِ الخَبَرِيَّاتِ وَبَعْضُ مَعَانِي الأَمْرِيَّاتِ كَمَا نُؤْمَرُ نَحْنُ أَنْ نَعْمَلَ بِأَحَادِيثِ الأَحْكَامِ المَعْرُوفَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّ العُلَمَاءَ اعْتَنَوْا بِضَبْطِهَا أَكْثَرَ مِنَ اعْتِنَائِهِمْ بِضَبْطِ الخَبَرِيَّاتِ كَأَحَادِيثِ الزُّهْدِ وَالقِصَصِ وَالفَضَائِلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، إِذْ حَاجَةُ الأُمَمِ إِلَى مَعْرِفَةِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَكْثَرُ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّفَاصِيلِ بِالخَبَرِيَّاتِ الَّتِي يُكْتَفَى بِالإِيمَانِ المُجْمَلِ بِهَا.

وَأَمَّا الأَمْرُ وَالنَّهْيُ، فَلَابُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، إِذِ العَمَلُ بِالمَأْمُورِ لَا يَكُونُ إِلَّا مُفَصَّلًا، وَالمَحْظُورُ الَّذِي يَجِبُ اجْتِنَابُهُ لَابُدَّ أَنْ يُمَيَّزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

وَالنَّصَارَى لَا يَحْتَاجُونَ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ إِلَى هَذَا فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِشَرْعٍ مَنْقُولٍ عَنِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِنْدَهُمْ لِأَكَابِرِهِمْ أَنْ يَشْرَعُوا دِينًا لَمْ يَشْرَعْهُ المَسِيحُ، وَيَقُولُونَ: مَا شَرَعَهُ هَؤُلَاءِ فَقَدْ شَرَعَهُ المَسِيحُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِنَايَةٌ وَلَا مَعْرِفَةٌ بِشَرْعِ المَسِيحِ، كَمَا لِلْمُسْلِمِينَ عِنَايَةٌ وَمَعْرِفَةٌ بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

❁❁❁

فَصْلٌ

وَأَمَّا التَّوْرَاةُ فَمِنَ المَعْلُومِ عِنْدَ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّ بَيْتَ المَقْدِسِ خُرِّبَ الخَرَابَ الأَوَّلَ(١) وَجَلَا أَهْلُهُ مِنْهُ وَسُبُوا وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنَ التَّوْرَاةِ نُسَخٌ كَثِيرَةٌ ظَاهِرَةٌ، بَلْ إِنَّمَا أُخِذَتْ عَنْ نَفَرٍ قَلِيلٍ.

كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّ عُزَيْرًا(٢) أَمْلَاهَا وَأَنَّهُمْ وَجَدُوا نُسْخَةً أُخْرَى فَقَابَلُوهَا بِهَا وَالمُقَابَلَةُ تَحْصُلُ بِاثْنَيْنِ وَقَدْ يَغْلَطُ أَحَدُهُمَا وَهُمْ يَذْكُرُونَ أَنَّ مِنَ المُلُوكِ مَنْ أَمَرَ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبْرًا مِنْهُمْ بِنَقْلِهَا وَاعْتَبَرَ بَعْضَ تِلْكَ النُّسَخِ بِبَعْضٍ وَهَذَا إِذَا كَانَ صِدْقًا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الغَلَطُ وَقَعَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهَا قَبْلَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَثْبُتَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ عَنْ نَبِيٍّ مَعْصُومٍ أَوْ أَقَرَّ جَمِيعَ أَلْفَاظِهَا نَبِيٌّ مَعْصُومٌ.

فَمَا قَالَهُ المَعْصُومُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا ثَبَتَ بِالنَّقْلِ المُتَوَاتِرِ فَهُوَ حَقٌّ.

وَهَؤُلَاءِ القَائِلُونَ إِنَّهُ وَقَعَ التَّغْيِيرُ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ يَقُولُونَ لَمْ تُؤْخَذْ عَنْ نَبِيٍّ مَعْصُومٍ وَلَا نُقِلَتْ بِالتَّوَاتُرِ.

وَمَنْ نَازَعَ مِنَ المُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ يَقُولُونَ: أُخِذَتْ عَنِ العُزَيْرِ، وَهُوَ نَبِيٌّ مَعْصُومٌ وَهَذَا مِمَّا يَحْتَاجُ المُثْبِتُ فِيهِ وَالنَّافِي إِلَى تَحْقِيقِهِ.

---

(١) **الخراب الأول**: هو تخريب بختنصر له سنة ٥٨٦ ق.م، كما ذكره سعيد بن البطريق في تاريخه نظر الجوهر (١/ ٧١) ط. بيروت، وهناك خراب آخر على يد طيطس سنة ٧٠م.

(٢) **عزير**: قال اليهود فيه بأنه ابن الله والشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرئيل فقتلوا علماءهم ويقال بأن العزير مرَّ على قرية قد خربت فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾. وقد عمرها الله أحسن مما كانت وقال عزير لقومه: قد جئتكم بالتوراة، ويقال: بأنه ربط على إصبع من أصابعه قلمًا وكتب التوراة بأصبعه فلما تراجع الناس استخرجوا النسخ التي كانت في الجبال وقابلوه فوجدوا ما جاء به صحيحًا.

وَإِذَا قَالَتِ النَّصَارَى فَالمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقَرَّهَا قِيلَ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يُلْزِمَهُمْ بِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ فَكَيْفَ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُغَيِّرَ نُسَخَ التَّوْرَاةِ الَّتِي عِنْدَهُمْ مَعَ كَثْرَتِهَا وَهُمْ قَدْ طَلَبُوا قَتْلَهُ وَصَلْبَهُ لِعَجْزِهِ وَضَعْفِهِ وَصَلَبُوا شَبِيهَهُ كَمَا يَقُولُهُ المُسْلِمُونَ أَوْ صَلَبُوهُ نَفْسَهُ (كَمَا يَقُولُهُ النَّصَارَى)، فَكَيْفَ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُصْلِحَ مَا غُيِّرَ مِنْهَا؟

وَأَمَّا مَنْ بَعْدَ المَسِيحِ فَلَيْسَ مَعْصُومًا وَالمَسِيحُ غَيَّرَ بَعْضَ أَحْكَامِهَا وَأَقَرَّ أَكْثَرَهَا، وَالأَحْكَامُ إِنَّمَا يَدَّعِي المُسْلِمُونَ فِيهَا النَّسْخَ وَتَبْدِيلَهَا بِالاِعْتِقَادِ بِخِلَافِ مُوجِبِهَا وَالعَمَلِ بِذَلِكَ، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دَعْوَى تَبْدِيلِ أَلْفَاظِهَا، كَمَا بَدَّلُوا شَرِيعَةَ الرَّجْمِ بِغَيْرِهَا وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ.

بِخِلَافِ الخَبَرِيَّاتِ فَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُ أَكْثَرُ المُسْلِمِينَ: إِنَّ التَّغْيِيرَ وَقَعَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهَا.

وَأَمَّا النُّبُوَّاتُ المَنْقُولَةُ عَنِ الِاثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ نَبِيًّا فَهَذِهِ لَا تُعْلَمُ مِنْهَا نُبُوَّةٌ وَاحِدَةٌ تَوَاتَرَتْ جَمِيعُ أَلْفَاظِهَا، بَلْ أَحْسَنُ أَحْوَالِهَا أَنْ تَكُونَ بِمَنْزِلَةِ الإِنْجِيلِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَا يُنْقَلُ مِنْ أَقْوَالِ الأَنْبِيَاءِ وَسِيَرِهِمْ كَسِيرَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ أَوْ بَعْضِ كُتُبِ المَسَانِدِ وَالسُّنَنِ الَّتِي يَنْقُلُ فِيهَا مَا يَنْقُلُهُ النَّاقِلُونَ مِنْ أَقْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَفْعَالِهِ، وَأَكْثَرُهُ صِدْقٌ، وَبَعْضُهُ غَلَطٌ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ حَفِظَ اللهُ لَهَا مَا أَنْزَلَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فَمَا فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ أَوْ نَقْلِ الحَدِيثِ أَوْ تَفْسِيرِهِ مِنْ غَلَطٍ فَإِنَّ اللهَ يُقِيمُ لَهُ مِنَ الأُمَّةِ مَنْ يُبَيِّنُهُ وَيَذْكُرُ الدَّلِيلَ عَلَى غَلَطِ الغَالِطِ وَكَذِبِ الكَاذِبِ فَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ وَلَا يَزَالُ فِيهَا طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ إِذْ كَانُوا آخِرَ الأُمَمِ فَلَا نَبِيَّ - بَعْدَ نَبِيِّهِمْ - بَعْدَهُمْ وَلَا كِتَابَ بَعْدَ كِتَابِهِمْ.

obeikandl.com

وَكَانَتِ الأُمَمُ قَبْلَهُمْ إِذَا بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا يُبَيِّنُ لَهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيٌّ، وَقَدْ ضَمِنَ اللهُ أَنْ يَحْفَظَ مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الذِّكْرِ وَأَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، بَلْ أَقَامَ اللهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ مَنْ يَحْفَظُ بِهِ دِينَهُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالقُرْآنِ وَيَنْفِي بِهِ تَحْرِيفَ الغَالِينَ وَانْتِحَالَ المُضِلِّينَ وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ.

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ غُيِّرَ بَعْضُ أَلْفَاظِهَا بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ كَانَ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَغَيْرِهِمَا أَلْفَاظٌ صَرِيحَةٌ بِأُمُورٍ.

مِنْهَا: اسْمُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهُ عَمَدَ بَعْضُ أَهْلِ الكِتَابِ فَغَيَّرُوا بَعْضَ الأَلْفَاظِ فِي النُّسَخِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُمْ.

لَا يَقُولُونَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ غَيَّرُوا كُلَّ نُسْخَةٍ كَانَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ لَكِنْ غَيَّرُوا بَعْضَ أَلْفَاظِ النُّسَخِ وَكَتَبَ النَّاسُ مِنْ تِلْكَ النُّسَخِ المُغَيَّرَةِ نُسَخًا كَثِيرَةً انْتَشَرَتْ فَصَارَ أَكْثَرُ مَا يُوجَدُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ هُوَ مِنْ تِلْكَ النُّسَخِ المُغَيَّرَةِ.

وَفِي العَالَمِ نُسَخٌ أُخْرَى لَمْ تُغَيَّرْ فَذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ رَآهَا وَقَرَأَهَا وَفِي تِلْكَ النُّسَخِ مَا لَيْسَ فِي النُّسَخِ الأُخْرَى وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّكَ فِي هَذَا الزَّمَانِ إِذَا أَخَذْتَ نُسَخَ التَّوْرَاةِ المَوْجُودَةِ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالسَّامِرَةِ وَجَدْتَ بَيْنَهُمَا اخْتِلَافًا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَكَذَلِكَ نُسَخُ الإِنْجِيلِ، وَكَذَلِكَ نُسَخُ الزَّبُورِ مُخْتَلِفَةٌ اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا بِحَيْثُ لَا يَعْقِلُ العَاقِلُ أَنَّ جَمِيعَ نُسَخِ التَّوْرَاةِ المَوْجُودَةِ مُتَّفِقَةٌ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ، وَلَا يُعْلَمُ أَنَّ جَمِيعَ نُسَخِ الإِنْجِيلِ مُتَّفِقَةٌ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ، وَلَا يُعْلَمُ أَنَّ جَمِيعَ نُسَخِ الزَّبُورِ مُتَّفِقَةٌ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ فَضْلًا عَنْ سَائِرِ النُّبُوَّاتِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَهْلَ الكِتَابِ إِقَامَةُ حُجَّةٍ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ النُّسَخِ بِجَمِيعِ اللُّغَاتِ فِي زَوَايَا الأَرْضِ مُتَّفِقَةٌ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ مِنْ جَمِيعِ النُّبُوَّاتِ وَالحُجَّةِ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا عَلَى تَعَذُّرِ تَغْيِيرِهَا كُلِّهَا تَدُلُّ عَلَى تَعَذُّرِ العِلْمِ بِتَسَاوِيهَا كُلِّهَا.

فَإِذَا قَالُوا: فَمَنْ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا، وَمَنْ هُوَ الَّذِي حَكَمَ عَلَى الدُّنْيَا كُلِّهَا مُلُوكِهَا وَقَسَاوِسَتِهَا وَعُلَمَائِهَا حَتَّى حَكَمَ عَلَى جَمِيعِ مَنْ بِأَقْطَارِ الأَرْضِ وَجَمَعَهَا مِنْ أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ (حَتَّى يُغَيِّرَهَا.

قِيلَ لَهُمْ: وَمَنِ الَّذِي يَعْلَمُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لُغَةً وَمَنْ هُوَ الَّذِي حَكَمَ عَلَى الدُّنْيَا مُلُوكِهَا وَقَسَاوِسَتِهَا وَعُلَمَائِهَا حَتَّى حَكَمَ عَلَى جَمِيعِ مَنْ بِأَقْطَارِ الأَرْضِ وَجَمَعَهَا مِنْ أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ) وَأَحْضَرَ كُلَّ نُسْخَةٍ مَوْجُودَةٍ فِي جَمِيعِ الأَرْضِ وَقَابَلَ كُلَّ نُسْخَةٍ (مَوْجُودَةٍ فِي جَمِيعِ الأَرْض) بِجَمِيعِ النُّسَخِ فَوَجَدَ جَمِيعَ أَلْفَاظِ جَمِيعِ النُّسَخِ الَّتِي بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الأَرْضِ لَفْظًا مُتَّفِقًا، لَمْ يَخْتَلِفْ أَلْفَاظُهَا.

فَإِنَّ دَعْوَى العِلْمِ بِهَذَا مُمْتَنِعٌ أَعْظَمُ مِنَ امْتِنَاعِ دَعْوَى تَغْيِيرِهَا، فَإِنَّهُ إِنْ أَمْكَنَ أَحَدًا أَنْ يَجْمَعَ جَمِيعَ النُّسَخِ كَانَتْ قُدْرَتُهُ عَلَى تَغْيِيرِ بَعْضِ أَلْفَاظِهَا كُلِّهَا أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ مُقَابَلَةِ كُلِّ مَا فِي نُسْخَةٍ بِجَمِيعِ مَا فِي سَائِرِ النُّسَخِ.

فَإِنَّا إِذَا أَحْضَرْنَا بِكِتَابٍ مِنَ الكُتُبِ عَشْرَ نُسَخٍ كَانَ تَغْيِيرُ بَعْضِ أَلْفَاظِ العَشْرَةِ أَيْسَرَ عَلَيْنَا مِنْ مُقَابَلَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ العَشْرَةِ بِالتِّسْعَةِ البَاقِيَةِ إِذِ المُقَابَلَةُ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى مَعْرِفَةِ جَمِيعِ أَلْفَاظِ كُلِّ نُسْخَةٍ وَمُسَاوَاتِهَا لِلْأُخْرَى.

وَأَمَّا التَّغْيِيرُ فَيَكْفِي فِيهِ أَنْ يُغَيِّرَ مِنْ كُلِّ نُسْخَةٍ مَا يُغَيِّرُهُ مِنَ الأُخْرَى فَإِنْ كَانَ تَغْيِيرُ جَمِيعِ النُّسَخِ مُمْتَنِعًا فِي العَادَةِ فَالعِلْمُ بِاتِّفَاقِهَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا، وَإِنْ كَانَ العِلْمُ بِاتِّفَاقِهَا مُمْكِنًا، فَإِمْكَانُ تَغْيِيرِ بَعْضِ أَلْفَاظِهَا أَيْسَرُ وَأَيْسَرُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنْ قِيلَ: إِنَّهُ غُيِّرَ بَعْضُهَا وَتُرِكَ بَعْضُهَا، فَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِأَنَّهَا كُلَّهَا قَوْلٌ وَاحِدٌ وَلَفْظٌ وَاحِدٌ فِي جَمِيعِ الأَلْسُنِ.

فَيُقَالُ: أَمَّا إِمْكَانُ قَوْلِ هَذَا فَظَاهِرٌ لَا يُنَازِعُ فِيهِ عَاقِلٌ، وَهُوَ وَاقِعٌ فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا التَّوْرَاةَ الَّتِي عِنْدَ السَّامِرَةِ تُخَالِفُ تَوْرَاةَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى (حَتَّى فِي العَشْرِ الكَلِمَاتِ.

فَذَكَرَ السَّامِرَةُ فِيهَا مِنْ أَمْرِ اسْتِقْبَالِ الطُّورِ مَا لَا يُوجَدُ فِي نُسَخِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى) وَكَذَلِكَ بَيْنَ نُسَخِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اخْتِلَافٌ مَعْرُوفٌ وَنُسَخُ الإِنْجِيلِ مُخْتَلِفَةٌ، وَنُسَخُ الزَّبُورِ مُخْتَلِفَةٌ اخْتِلَافًا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَبِكُلِّ حَالٍ فَلَا يَقْدِرُ عَاقِلٌ أَنْ يَقُولَ: يَمْتَنِعُ تَغْيِيرُ بَعْضِ النُّسَخِ.

وَلَكِنْ إِذَا قَالُوا لَمْ يُغَيَّرْ شَيْءٌ مِنْهَا لِأَنَّ جَمِيعَهَا قَوْلٌ وَاحِدٌ وَلَفْظٌ وَاحِدٌ فِي جَمِيعِ الأَلْسُنِ كَانَتْ هَذِهِ الدَّعْوَى بَاطِلَةٌ مِنْ وَجْهَيْنِ.

أَحَدُهُمَا- أَنَّ دَعْوَى العِلْمِ بِتَسَاوِي جَمِيعِ النُّسَخِ أَبْلَغُ مِنْ دَعْوَى إِمْكَانِ تَغْيِيرِهَا، فَإِنْ كَانَ التَّغْيِيرُ مُمْتَنِعًا عَلَى جَمِيعِهَا كَانَ عِلْمُ الوَاحِدِ بِمَا فِي جَمِيعِهَا - وَأَنَّهَا مُتَمَاثِلَةُ الأَلْفَاظِ مَعَ اخْتِلَافِ الأَلْسُنِ - أَوْلَى بِالِامْتِنَاعِ.

الثَّانِي- أَنَّ هَذَا دَعْوَى خِلَافِ الوَاقِعِ، فَإِنَّ الِاخْتِلَافَ فِي نُسَخِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ مَوْجُودٌ قَدْ رَأَيْنَاهُ نَحْنُ بِأَعْيُنِنَا، وَرَآهُ غَيْرُنَا، فَرَأَيْتُ عِدَّةَ نُسَخٍ بِالزَّبُورِ يُخَالِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَرَأَيْنَا بَعْضَ أَلْفَاظِ التَّوْرَاةِ الَّتِي يَنْقُلُهَا هَذِهِ الطَّائِفَةُ وَهِيَ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهَا هِيَ التَّوْرَاةُ الصَّحِيحَةُ المَنْقُولَةُ عِنْدَهُمْ بِالتَّوَاتُرِ تُخَالِفُ بَعْضَ أَلْفَاظِ تَوْرَاةِ الطَّائِفَةِ الأُخْرَى، وَكَذَلِكَ الإِنْجِيلُ.

وَبِالجُمْلَةِ قَوْلُهُمْ: هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ؛ لِأَنَّهَا كُلَّهَا قَوْلٌ وَاحِدٌ وَلَفْظٌ وَاحِدٌ فِي جَمِيعِ الأَلْسُنِ، تَضَمَّنَ شَيْئَيْنِ:

تَضَمَّنَ دَعْوَى كَاذِبَةً، وَحُجَّةً بَاطِلَةً، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ: (هَذَا لَا يُمْكِنُ) مُكَابَرَةٌ ظَاهِرَةٌ، فَإِنَّ إِمْكَانَ تَغْيِيرِ بَعْضِ النُّسَخِ مِمَّا لَا يُنَازِعُ عَاقِلٌ فِي إِمْكَانِهِ، لَكِنْ قَدْ يَقُولُ القَائِلُ: إِذَا

غُيِّرَ بَعْضُ النُّسَخِ وَأُظْهِرَ ذَلِكَ، شَاعَ ذَلِكَ فَرَأَى سَائِرُ أَهْلِ النُّسَخِ تِلْكَ النُّسْخَةَ مُغَايِرَةً لِنُسَخِهِمْ فَأَنْكَرُوهُ، فَإِنَّ الهِمَمَ وَالدَّوَاعِي مُتَوَفِّرَةٌ عَلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ، كَمَا يُوجَدُ اليَوْمَ مِثْلُ ذَلِكَ لَوْ أَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يُغَيِّرَ كِتَابًا مَشْهُورًا عِنْدَ النَّاسِ، بِهِ نُسَخٌ مُتَعَدِّدَةٌ، فَإِذَا غَيَّرَهُ فَوَصَلَتْ تِلْكَ النُّسْخَةُ إِلَى مَنْ يَعْرِفُ مَا فِي تِلْكَ النُّسَخِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ.

فَيُقَالُ: هَذَا يُمْكِنُ إِذَا كَانَتْ تِلْكَ النُّسْخَةُ المُغَيَّرَةُ وَصَلَتْ إِلَى طَائِفَةٍ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ مُوَاطَأَتُهُمْ عَلَى الكَذِبِ فَإِنَّهُ كَمَا يَمْتَنِعُ فِي الأَخْبَارِ المُتَوَاتِرَةِ التَّوَاطُؤُ عَلَى الكَذِبِ، فَيَمْتَنِعُ التَّوَاطُؤُ عَلَى كِتْمَانِ مَا يَتَعَذَّرُ كِتْمَانُهُ فِي العَادَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَى الجَمَاعَةِ القَلِيلَةِ التَّوَاطُؤُ عَلَى تَغْيِيرِ بَعْضِ النُّسَخِ، وَالنُّسَخُ إِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ وَلَيْسَ عَامَّتُهُمْ يَحْفَظُ أَلْفَاظَهَا كَمَا يَحْفَظُ عَوَامُّ المُسْلِمِينَ أَلْفَاظَ القُرْآنِ فَإِذَا قَصَدَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ تَغْيِيرَ نُسْخَةٍ أَوْ نُسَخٍ عِنْدَهُمْ أَمْكَنَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِذَا تَوَاطَأَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى عَلَى أَنْ لَا يَذْكُرُوا ذَلِكَ أَمْكَنَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَتِ الطَّوَائِفُ مِمَّنْ لَا يُمْكِنُ تَوَاطُؤُهَا عَلَى الكَذِبِ أَوِ الكِتْمَانِ امْتَنَعَ ذَلِكَ فِيهِمْ.

وَقَدْ رَأَيْنَا عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ كُتُبًا يَدَّعُونَ أَنَّهَا عِنْدَهُمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِخَطِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فِيهَا أُمُورٌ تَتَعَلَّقُ بِأَغْرَاضِهِمْ، وَقَدِ التَبَسَ أَمْرُهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَعَظَّمُوا مَا فِيهَا وَأَعْطَوْا أَهْلَ الكِتَابِ مَا كُتِبَ لَهُمْ فِيهَا مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُمْ مُمْتَثِلِينَ مَا فِيهَا، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مَنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنْ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ بَيَّنُوا كَذِبَهَا بِطُرُقٍ مَعْلُومَةٍ بِالتَّوَاتُرِ، مِثْلَ ذِكْرِهِمْ فِيهَا: شَهِدَ بِمَا فِيهَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الحَبْرُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَعْنُونَ كَعْبَ الأَحْبَارِ.

وَكَعْبُ الأَحْبَارِ إِنَّمَا أَسْلَمَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ لَمْ يُدْرِكِ النَّبِيَّ وَاسْمُهُ كَعْبُ بْنُ مَاتِعٍ، وَلَكِنْ فِي الأَنْصَارِ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الشَّاعِرُ(١) الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَوْبَتَهُ فِي سُورَةِ (بَرَاءَةٌ)، فَظَنَّ هَؤُلَاءِ الجُهَّالُ أَنَّ هَذَا هُوَ ذَاكَ.

وَمِثْلُ ذِكْرِهِمْ شَهَادَةَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ(٢) الَّذِي اهْتَزَّ لِمَوْتِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ذَكَرُوا شَهَادَتَهُ عَامَ خَيْبَرَ(٣)، وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ العِلْمِ أَنَّهُ مَاتَ عَقِبَ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ(٤) قَبْلَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ بِمُدَّةٍ، وَأَمْثَالَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا حُجَّتُهُمُ الدَّاحِضَةُ فَقَوْلُهُمْ: إِنَّ جَمِيعَ كُتُبِ النُّبُوَّاتِ الَّتِي فِي العَالَمِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالنُّبُوَّاتِ مَوْجُودَةٌ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا، بِلَفْظٍ وَاحِدٍ وَقَوْلٍ وَاحِدٍ، فَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ مِنَ العُقَلَاءِ إِنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ؟ وَإِنَّهُ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ نُسْخَةٍ مِنَ النُّبُوَّاتِ الأَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ بِأَحَدِ الأَلْسِنَةِ الِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مُوَافِقَةٌ لِكُلِّ نُسْخَةٍ فِي سَائِرِ الأَلْسِنَةِ، وَلَوِ ادَّعَى

---

(١) هو: كعب بن مالك بن أُبي كعب بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعيد ابن أسد بن سارة بن زيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري السلمي الشاعر، شهد العقبة وشهد أحد، وهو أحد الثلاثة المتخلفين في تبوك ثم تاب الله عليهم، قيل أنه مات في زمن معاوية سنة ٥٠ أو سنة ٥٣، وهو ابن سبع وسبعين سنة.

(٢) هو سعد بن معاذ بن نعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأوسي الأنصاري، صحابي جليل سيد الأوس وحامل لوائهم يوم بدر، شهد أحد والخندق ورمى بسهم ومات ودفن بالبقيع – رحمه الله –.

(٣) **خيبر**: بلد بين المدينة ومكة معروفة الآن وبها الواقعة المشهورة والمعروفة بغزوة خيبر – سنة سبع من الهجرة، وتفاصيل هذه الغزوة معروفة في كتب المغازي والسير.

(٤) **غزوة الخندق**: وقد أنزل الله تعالى فيها صدر سورة الأحزاب، قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم**...﴾ الآية. وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب، في شوال سنة خمس من الهجرة، وسميت بـ«الخندق» الذي أشار بحفره حول المدينة سلمان الفارسي وهو أخدود عميق مستطيل يحفر في ميدان القتال ليتقى به الجنود، وحفر الخندق لم يكن من عادة العرب، ولكن من مكايد الفرس وحروبها، وهذه الغزوة معروفة في كتب السير والمغازي.

مُدَّعٍ أَنَّ كُلَّ نُسْخَةٍ مِنَ التَّوْرَاةِ فِي العَالَمِ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ (أَوْ كُلَّ نُسْخَةٍ مِنَ الإِنْجِيلِ فِي العَالَمِ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ) أَوْ كُلَّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ مِنَ الزَّبُورِ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ مُوَافِقَةٌ لِجَمِيعِ النُّسَخِ العَرَبِيَّةِ المَوْجُودَةِ فِي زَوَايَا العَالَمِ لَكَانَ قَدِ ادَّعَى مَا لَا يَعْلَمُهُ وَلَا يُمْكِنُهُ عِلْمُهُ، فَمِنْ أَيْنَ لَهُ ذَلِكَ؟

وَهَلْ رَأَى كُلَّ نُسْخَةٍ عَرَبِيَّةٍ بِهَذِهِ الكُتُبِ، أَوْ أَخْبَرَهُ مَنْ يُعْلَمُ صِدْقُهُ أَنَّ جَمِيعَ النُّسَخِ العَرَبِيَّةِ المَوْجُودَةِ فِي العَالَمِ مُوَافِقَةٌ لِهَذِهِ النُّسْخَةِ؟

وَكَذَلِكَ إِذَا ادَّعَى ذَلِكَ فِي اللِّسَانِ اليُونَانِيِّ، وَالسُّرْيَانِيِّ، وَالرُّومِيِّ، وَالعِبْرَانِيِّ، وَالهِنْدِيِّ، فَإِنْ كَانَ فِي العَالَمِ بِكُلِّ كِتَابٍ مِنْ هَذِهِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ لِسَانًا فَدَعْوَى اتِّفَاقِ نُسَخِ كُلِّ لِسَانٍ مِنْ جِنْسِ دَعْوَى اتِّفَاقِ النُّسَخِ العَرَبِيَّةِ، فَكَيْفَ إِذَا ادَّعَى اتِّفَاقَ النُّسَخِ بِجَمِيعِ الأَلْسِنَةِ؟

وَهَبْ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ فِي نُسَخِ لِسَانٍ نَقَلَهَا أَهْلُهُ، وَالنَّاطِقُونَ بِهِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ دَعْوَاهُ فِي لِسَانٍ كَثُرَ النَّاطِقُونَ بِهِ وَانْتَشَرَ أَهْلُهُ؟

وَلَيْسَ هَذَا كَدَعْوَى اتِّفَاقِ مَصَاحِفِ المُسْلِمِينَ بِالقُرْآنِ فَإِنَّ القُرْآنَ لَا يَتَوَقَّفُ نَقْلُهُ عَلَى المَصَاحِفِ، بَلِ القُرْآنُ مَحْفُوظٌ فِي قُلُوبِ أُلُوفٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَلَوْ عُدِمَ كُلُّ مُصْحَفٍ فِي العَالَمِ لَمْ يَقْدَحْ ذَلِكَ فِي نَقْلِ لَفْظٍ مِنْ أَلْفَاظِ القُرْآنِ، بِخِلَافِ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهُ قَلَّ أَنْ نَجِدَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أَحَدًا يَحْفَظُ كِتَابًا مِنْ هَذِهِ الكُتُبِ، فَقَلَّ أَنْ يُوجَدَ مِنَ اليَهُودِ مَنْ يَحْفَظُ التَّوْرَاةَ.

وَأَمَّا النَّصَارَى فَلَا يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ يَحْفَظُ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالنُّبُوَّاتِ كُلَّهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَحْفَظَهَا بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا، (وَإِنْ وُجِدَ ذَلِكَ فَهُوَ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ لَا الكَذِبُ وَلَا الغَلَطُ).

فَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ انْتِشَارِ كُتُبِهِمْ بِالأَلْسِنَةِ الْمُخْتَلِفَةِ هُوَ مِنْ أَقْوَى الأُمُورِ فِي عَدَمِ العِلْمِ بِتَمَاثُلِ مَا فِيهَا مِنَ الأَلْفَاظِ، وَأَنَّ القُرْآنَ إِذَا كَانَ مَنْقُولًا، بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، وَذَلِكَ اللِّسَانُ يَحْفَظُهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ القُرْآنَ لَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ أَلْفَاظِهِ، وَإِنْ أَمْكَنَ تَغْيِيرُ بَعْضِ أَلْفَاظِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ.

وَالْمُسْلِمُونَ لَا يَدَّعُونَ أَنَّهُ غُيِّرَ جَمِيعُ أَلْفَاظِ جَمِيعِ النُّسَخِ بَعْدَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا ظَنَّهُ بِهِمْ هَؤُلَاءِ الجُهَّالُ، بَلْ إِنَّمَا ادَّعَوْا مَا يُسَوِّغُهُ العَقْلُ، بَلْ وَيَظْهَرُ دَلِيلُ صِدْقِهِ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الجُهَّالَ ادَّعَوُا العِلْمَ، بِأَنَّ جَمِيعَ النُّسَخِ بِجَمِيعِ الأَلْسِنَةِ بِجَمِيعِ الكُتُبِ، بِلَفْظٍ وَاحِدٍ، فَادَّعَوْا مَا لَا يُمْكِنُ أَحَدًا عِلْمُهُ، وَادَّعَوْا مَا يُعْلَمُ بُطْلَانُهُ.

❁❁❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

وَقَدْ ظَهَرَ الجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِمْ فَمَنْ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا، أَوْ مَنْ هُوَ الَّذِي حَكَمَ عَلَى الدُّنْيَا جَمِيعِهَا مُلُوكِهَا وَقَسَاوِسَتِهَا وَعُلَمَائِهَا حَتَّى حَكَمَ عَلَى الدُّنْيَا جَمِيعِهَا مِنْ أَرْبَعِ زَوَايَا العَالَمِ حَتَّى غَيَّرَهَا، وَإِنْ كَانَ مِمَّا أَمْكَنَهُ جَمْعُهَا كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا.

فَهَذَا مَا لَا يُمْكِنُ، إِذْ جَمِيعُهَا قَوْلٌ وَاحِدٌ وَنَصٌّ وَاحِدٌ وَاعْتِقَادٌ وَاحِدٌ. اهـ.

وَقَدْ ظَهَرَ الجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّا لَمْ نَدَّعِ تَغْيِيرَهَا بَعْدَ أَنْ صَارَتْ بِهَذِهِ الأَلْسُنِ، وَانْتَشَرَتْ بِهَا النُّسَخُ، بَلْ لَا نَدَّعِي التَّغْيِيرَ بَعْدَ انْتِشَارِ النُّسَخِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ مِثْلِ كُتُبِ النَّحْوِ وَالطِّبِّ وَالحِسَابِ وَالأَحَادِيثِ وَالسُّنَنِ المَنْقُولَةِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ مِمَّا نُقِلَ فِي الأَصْلِ نَقْلَ آحَادٍ، ثُمَّ صَارَتِ النُّسَخُ بِهِ كَثِيرَةً مُنْتَشِرَةً، فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَدَّعِي أَنَّهُ بَعْدَ انْتِشَارِ النُّسَخِ بِكُتَّابٍ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا حَكَمَ إِنْسَانٌ عَلَى جَمِيعِ المَعْمُورَةِ، وَجَمَعَ النُّسَخَ الَّتِي بِهَا وَغَيَّرَهَا.

وَلَا ادَّعَى أَحَدٌ مِثْلَ ذَلِكَ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، وَإِنَّمَا ادَّعَى ذَلِكَ فِيهَا، لَمَّا كَانَتِ النُّسَخُ قَلِيلَةً: إِمَّا نُسْخَةً، وَإِمَّا اثْنَتَيْنِ، وَإِمَّا أَرْبَعَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ.

أَوِ ادَّعَى تَغْيِيرَ بَعْضِ أَلْفَاظِ النُّسَخِ، فَإِنَّ بَعْضَ النُّسَخِ يُمْكِنُ تَغْيِيرُهَا.

وَنُسَخُ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ مَوْجُودَةٌ اليَوْمَ وَفِي بَعْضِهَا اخْتِلَافٌ، لَكِنَّهُ اخْتِلَافٌ قَلِيلٌ وَالغَالِبُ عَلَيْهَا الِاتِّفَاقُ.

وَذَلِكَ يَظْهَرُ بِالوَجْهِ الثَّانِي- أَنَّ قَوْلَهُمْ: إِنَّ جَمِيعَهَا قَوْلٌ وَاحِدٌ، وَنَصٌّ وَاحِدٌ، وَاعْتِقَادٌ وَاحِدٌ، لَيْسَ كَمَا قَالُوهُ، بَلْ نُسَخُ التَّوْرَاةِ مُخْتَلِفَةٌ فِي مَوَاضِعَ.

وَبَيْنَ تَوْرَاةِ اليَهُودِ[١] وَالنَّصَارَى وَالسَّامِرَةِ اخْتِلَافٌ، وَبَيْنَ نُسَخِ الزَّبُورِ اخْتِلَافٌ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ بَيْنَ الأَنَاجِيلِ فَكَيْفَ بِنُسَخِ النُّبُوَّاتِ؟

وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا مِنْ نُسَخِ الزَّبُورِ مَا فِيهِ تَصْرِيحٌ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِاسْمِهِ وَرَأَيْتُ نُسْخَةً أُخْرَى بِالزَّبُورِ فَلَمْ أَرَ ذَلِكَ فِيهَا وَحِينَئِذٍ فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ النُّسَخِ مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ مَا لَيْسَ فِي أُخْرَى.

الوَجْهُ الثَّالِثُ- أَنَّ التَّبْدِيلَ فِي التَّفْسِيرِ أَمْرٌ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَبِهِ يَحْصُلُ المَقْصُودُ فِي هَذَا المَقَامِ فَإِنَّا نَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَكْتُوبٌ فِيمَا كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ**﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَلَا رَيْبَ أَنَّ نُسَخَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ عَلَى عَهْدِهِ كَانَتْ كَثِيرَةً مُنْتَشِرَةً فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا فَلَابُدَّ مِنْ أَحَدِ الأَمْرَيْنِ.

* إِمَّا أَنْ يَكُونَ غُيِّرَ اللَّفْظُ مِنْ بَعْضِ النُّسَخِ وَانْتَشَرَتِ النُّسَخُ المُغَيَّرَةُ.

* وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذِكْرُهُ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ كَمَا اسْتَخْرَجَهُ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ مِمَّنْ كَانَ مِنْ أَحْبَارِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمِمَّنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَحْبَارِهِمْ، اسْتَخْرَجُوا ذِكْرَهُ وَالبِشَارَةَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَنُبُوَّاتِ الأَنْبِيَاءِ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

---

(١) **توراة اليهود**: يقصد بها الشيخ - رحمه الله - النسخة العبرية، ويعني بنسخة النصارى: التوراة الكاثوليكية، والتوراة البروتستانتية، وهذه جميعها مختلفة اختلافًا بينًا، ويكفي أن نعرف أن نسختي النصارى مختلفتان في عدد الأسفار حيث تزيد النسخة الكاثوليكية على النسخة البروتستانتية بسبعة أسفار.

obeikandl.com

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ ذِكْرَهُ مَوْجُودٌ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ هَذَا وَأَصْرَحُ فِي بَعْضِ النُّسَخِ لَا يُمْكِنُ هَؤُلَاءِ دَفْعُهُ بِأَنْ يَقُولُوا: قَدِ اطَّلَعْنَا عَلَى كُلِّ نُسْخَةٍ فِي العَالَمِ بِالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَوَجَدْنَاهَا عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ إِلَّا كَذَّابٌ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَشَرًا أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى كُلِّ نُسْخَةٍ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، كَمَا لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُغَيِّرَ كُلَّ نُسْخَةٍ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَلَوْ لَمْ يَعْلَمِ اخْتِلَافَ النُّسَخِ لَمْ يُمْكِنْهُ الجَزْمُ بِاتِّفَاقِهَا فِي اللَّفْظِ، فَكَيْفَ وَقَدْ ذَكَرَ النَّاسُ المُطَّلِعُونَ عَلَيْهَا مِنِ اخْتِلَافِ لَفْظِهَا؟ مَا تَبَيَّنَ بِهِ كَذِبُ مَنِ ادَّعَى اتِّفَاقَ لَفْظِهَا، وَكَيْفَ يُمْكِنُ اتِّفَاقُ لَفْظِهَا وَهِيَ، بِلُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ.

❁❁❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

قَالُوا: ثُمَّ وَجَدْنَا فِي هَذَا الكِتَابِ، مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا بُرْهَانًا، مِثْلَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الشُّورَى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى:١٥].

وَأَمَّا لِغَيْرِ أَهْلِ الكِتَابِ، فَيَقُولُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ...﴾ السُّورَةَ كُلَّهَا.

وَالجَوَابُ:

أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾.

فَهَذِهِ الآيَةُ مَذْكُورَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [الشورى:١٣-١٥].

فَقَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ شَرَعَ لَنَا مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣].

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ تَفَرُّقِ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كَتَفَرُّقِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَتَفَرُّقِ فِرَقِ اليَهُودِ، وَفِرَقِ النَّصَارَى كَالنَّسْطُورِيَّةِ وَاليَعْقُوبِيَّةِ وَالمَلَكِيَّةِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ - أُولَٰٓئِكَ الْمُفْتَرِقِينَ - لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى: ١٤].

وَهَكَذَا تُوجَدُ عَامَّةُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ مُرِيبٍ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ١١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾. إِلَى الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ لَنَا: ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾. وَهَذَا يَتَنَاوَلُ أَهْوَاءَ أَهْلِ الكِتَابِ، كَمَا يَتَنَاوَلُ أَهْوَاءَ المُشْرِكِينَ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

كَما صَرَّحَ بِنَهْيِهِ عَنِ اتِّباعِ أَهْواءِ المُشْرِكِينَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى: ١٥]، حَقٌّ، فَإِنَّ اللهَ أَمَرَهُ وَجَمِيعَ الخَلْقِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾، فَإِنَّ اللهَ أَمَرَهُ أَنْ يَعْدِلَ بَيْنَ جَمِيعِ الخَلْقِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

هَذِهِ بَراءَةٌ مِنْهُ لِمَنْ يُخاطِبُ بِذَلِكَ مِنَ المُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتابِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١].

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾.
[سورة الكافرون]

فَإِنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ كَقَوْلِهِ: ﴿ لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١].

وَهِيَ كَلِمَةٌ تُوجِبُ بَرَاءَتَهُ مِنْ عَمَلِهِمْ وَبَرَاءَتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِ فَإِنَّ حَرْفَ اللَّامِ فِي لُغَةِ العَرَبِ يَدُلُّ عَلَى الِاخْتِصَاصِ، فَقَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. يَدُلُّ عَلَى أَنَّكُمْ مُخْتَصُّونَ بِدِينِكُمْ لَا أُشْرِكُكُمْ فِيهِ، وَأَنَا مُخْتَصٌّ بِدِينِي لَا تُشْرِكُونِي فِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١].

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: «هِيَ بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ»(١)، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الآيَةِ أَنَّهُ رَضِيَ بِدِينِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا أَهْلِ الكِتَابِ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْمُلْحِدِينَ، وَلَا أَنَّهُ نَهَى عَنْ جِهَادِهِمْ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الغَالِطِينَ، وَجَعَلُوهَا مَنْسُوخَةً، بَلْ فِيهَا بَرَاءَتُهُ مِنْ دِينِهِمْ وَبَرَاءَتُهُمْ مِنْ دِينِهِ، وَأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ أَعْمَالُهُمْ وَلَا يُجْزَوْنَ بِعَمَلِهِ وَلَا يَنْفَعُهُمْ.

وَهَذَا أَمْرٌ مُحْكَمٌ لَا يَقْبَلُ النَّسْخَ وَلَمْ يَرْضَ الرَّسُولُ بِدِينِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا أَهْلِ الكِتَابِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَطُّ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ بِدِينِ الكُفَّارِ وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سُورَةُ الكَافِرُونَ].

---

(١) حديث حسن.

أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٦) والترمذي بعد حديث [٣٤٠٣] والنسائي في «عمل اليوم [٨٠٢] والحاكم (١/ ٥٦٥) والبيهقي في «الشعب» [٢٥٢١] من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن فروة بن نوفل الأشجعي عن أبيه، في حديث طويل وفيه ... واقرأ عند منامك... الخ.

وتابع إسرائيل عليه زهير بن معاوية.

فرواه ابن أبي شيبة (٩/ ٧٤)، (١٠/ ٢٤٩) والدارمي [٣٤٢٧] والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ١٠٨) وأبو داود [٥٠٥٥] والنسائي «عمل اليوم» [٨٠١] وأبو القاسم في «الجعديات» [٢٦٥٤] وابن قانع في «معجم الصحابة» (٣/ ١٥٦) وابن حبان [٧٩٠] [٥٥٢٦] والطبراني في «الدعاء» [٢٧٧] وفي «الدعوات» [٣٥٨] والخطيب في «الأسماء المبهمة» ص[٣٠٨] من طريق زهير، به.

ولقد وقع فيه اختلاف جعل ابن عبد البر يقول «فيه اضطراب»، لكن الحافظ ابن حجر قال: «لا يضر هذا الاختلاف»، وحسن إسناده في «نتائج الأفكار» كما فصلت القول فيه في «تحقيق عمل اليوم» لابن السني وهو مطبوع.

فَظَنَّ هَذَا المُلْحِدُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُ رَضِيَ بِدِينِ الكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ، فَيَكُونُ قَدْ رَضِيَ بِدِينِ الكُفَّارِ، وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرْضَ قَطُّ إِلَّا بِدِينِ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، مَا رَضِيَ قَطُّ بِدِينِ الكُفَّارِ لَا مِنَ المُشْرِكِينَ، وَلَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ لَا يَدُلُّ عَلَى رِضَاهُ بِدِينِهِمْ، بَلْ وَلَا عَلَى إِقْرَارِهِمْ عَلَيْهِ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ**».

وَنَظِيرُ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يُونُس: ٤١].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشُّورَى: ١٥].

وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَيْضًا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ الآيَةَ، أَنِّي لَا آمُرُ بِالقِتَالِ وَلَا أَنْهَى عَنْهُ وَلَا أَتَعَرَّضُ لَهُ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ وَإِنَّمَا فِيهَا أَنَّ دِينَكُمْ لَكُمْ أَنْتُمْ مُخْتَصُّونَ بِهِ وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ وَدِينِي لِي وَأَنَا مُخْتَصٌّ بِهِ وَأَنْتُمْ بُرَآءُ مِنْهُ.

وَهَذَا أَمْرٌ مُحْكَمٌ لَا يُمْكِنُ نَسْخُهُ بِحَالٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: عَنِ الخَلِيلِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزُّخْرُف: ٢٦-٢٧].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإِسْرَاء: ١٣].

وَهُوَ مَا طَارَ عَنْهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأَنْعَام: ١٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

بَلْ قَالَ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٦].

فَإِذَا كَانَ قَدْ بَرَّأَهُ اللهُ مِنْ مَعْصِيَةِ مَنْ عَصَاهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَكَيْفَ لَا يُبَرِّئُهُ مِنْ كُفْرِ الكَافِرِينَ الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ لَهُ مَعْصِيَةً وَمُخَالَفَةً؟

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

إلزام اليهود والنصارى بدين الإسلام

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سُورَةُ الكَافِرُونَ].

فَهُوَ أَمْرٌ بِالقَوْلِ لِجَمِيعِ الكَافِرِينَ مِنَ المُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ، فَإِنَّ أَهْلَ الكِتَابِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ كَافِرُونَ قَدْ شَهِدَ عَلَيْهِمْ بِالكُفْرِ وَأَمَرَ بِجِهَادِهِمْ وَكَفَّرَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ كَافِرِينَ وَيُوجِبْ جِهَادَهُمْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البَيِّنَة: ١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المَائِدَة: ٧٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المَائِدَة: ٧٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٢٩].

وَحَرْفُ ﴿مِنَ﴾ فِي هَذِهِ المَوَاضِعِ لِبَيَانِ الجِنْسِ، فَتُبَيِّنُ جِنْسَ المُتَقَدِّمِ، وَإِنْ كَانَ مَا قَبْلَهَا يَدْخُلُ فِي جَمِيعِ الجِنْسِ الَّذِي بَعْدَهَا، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ لِلتَّبْعِيضِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ جَمِيعُ المُشْرِكِينَ، وَأَهْلُ الكِتَابِ.

وَكَذَلِكَ دَخَلَ فِي الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِاليَوْمِ الآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ جَمِيعُ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَتُهُ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [النور: ٥٥].

وَإِنْ كَانَ جَمِيعُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَهَذَا إِذَا كَانَ الجِنْسُ يَتَنَاوَلُ المَذْكُورِينَ وَغَيْرَهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَ فِي الجِنْسِ إِلَّا المَذْكُورُونَ، كَمَا يَقُولُ: هُنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْهُمْ غَيْرُهُ.

وَوَصَفَهُمْ بِالشِّرْكِ، وَبِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَرْبَابًا وَاتَّخَذُوا المَسِيحَ رَبًّا وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا وَهَؤُلَاءِ بِاتِّخَاذِهِمْ غَيْرَهُ أَرْبَابًا عَبَدُوهُمْ فَأَشْرَكُوا بِاللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ -.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

فَقَدْ أَخْبَرَ أَيْضًا أَنَّهُ مَنِ اتَّخَذَ المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا فَإِنَّهُ كَافِرٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ

كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المَائِدَة: ٧٣-٧٦].

فَقَدَ وَبَّخَ أَهْلَ التَّثْلِيثِ عَلَى أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) فَدَخَلُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾.

كَمَا دَخَلَ فِي ذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الكُفَّارِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ اليَهُودُ، وَهُمْ أَوْلَى بِالدُّخُولِ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: (مَا تَعْبُدُونَ) يَتَنَاوَلُ صِفَاتِ المَعْبُودِ، وَالإِلَهُ الَّذِي يَعْبُدُهُ المُؤْمِنُونَ هُوَ الإِلَهُ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالقُرْآنَ، وَأَرْسَلَ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدًا - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ -.

وَالإِلَهُ المُتَّصِفُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ لَا يَعْبُدُهُ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٣٣].

فَهَذَا الإِلَهُ الَّذِي يَعْبُدُهُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، وَلَيْسَ هُوَ إِلَهَ المُشْرِكِينَ الَّذِي يَعْبُدُونَهُ، وَإِنْ كَانَ هُوَ المُسْتَحِقَّ لِأَنْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ وَيَصِفُونَهُ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ فَلَا يُخْلِصُونَ لَهُ الدِّينَ، فَيَعْبُدُوا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى إِنْ لَمْ يَسْتَكْبِرُوا عَنْ عِبَادَتِهِ، وَإِلَهُ العَبْدِ الَّذِي يَعْبُدُهُ بِالفِعْلِ لَيْسَ حَالُهُ مَعَهُ كَحَالِهِ مَعَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبُدَهُ، وَهُوَ لَا يَعْبُدُهُ، بَلْ يُشْرِكُ بِهِ أَوْ يَسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾.

وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى، وَالكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى اليَهُودِ.

فَصْلٌ

وجوب محاجة الظالمين من مشركين وأهل كتاب

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ...﴾ الآيَةَ [الشورى:١٥].

فَهَذَا لَيْسَ خِطَابًا لِلنَّصَارَى خُصُوصًا، بَلْ هُوَ خِطَابٌ لِلْجَمِيعِ، وَهَؤُلَاءِ النَّصَارَى ظَنُّوا أَنَّ مَعْنَى هَذَا لَا تُحَاجُّوا أَهْلَ الكِتَابِ، كَمَا ظَنُّوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦].

أَنَّ مَعْنَاهُ: لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ - أَيِ النَّصَارَى - إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا، أَيِ اليَهُودَ اهـ.

وَهَذَا تَحْرِيفُ كَلِمِ اللهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِتَحْرِيفِهِمْ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَسَائِرِ النُّبُوَّاتِ، فَإِنَّهُمْ أَعْظَمُ تَسَلُّطًا عَلَى تَحْرِيفِ مَعَانِيهَا مِنْهُمْ عَلَى تَحْرِيفِ مَعَانِي القُرْآنِ، إِذْ كَانَ القُرْآنُ لَهُ أُمَّةٌ تَحْفَظُهُ، وَتَعْرِفُ مَعَانِيَهُ، وَتَذُبُّ عَنْهُ مَنْ يُحَرِّفُ لَفْظَهُ أَوْ مَعْنَاهُ.

وَأَمَّا تِلْكَ الكُتُبُ فَلَيْسَ لَهَا مَنْ يَذُبُّ عَنْ لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا، فَلِهَذَا عَظُمَ تَحْرِيفُهُمْ لَهَا، وَكَانَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيفِهِمْ لِلْقُرْآنِ.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا الخِطَابَ لَيْسَ مُخْتَصًّا بِالنَّصَارَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَالسُّوَرُ المَكِّيَّةُ كَانَتْ تَتَنَاوَلُ مَنْ لَا يَقْرَأُ الكِتَابَ، لَا تَخْتَصُّ بِأَهْلِ الكِتَابِ، بَلْ كَانَتْ تَعُمُّ الأُمَمَ أَوْ تَخْتَصُّ بِالمُشْرِكِينَ.

وَالسُّوَرُ المَدَنِيَّةُ خِطَابُهَا تَارَةً لِأَهْلِ الكِتَابِ، وَتَارَةً تَخْتَصُّ بِالمُؤْمِنِينَ وَتَارَةً تَعُمُّ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ [الشُّورَى: ١٤].

فَالخِطَابُ إِمَّا أَنْ يَعُمَّ المُشْرِكِينَ، وَأَهْلَ الكِتَابِ، أَوْ يَخُصَّ المُشْرِكِينَ، وَأَهْلُ الكِتَابِ: اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَبِكُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِ النَّصَارَى بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾.

فَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٣٩].

وَقَوْلِهِ: ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [آل عِمرَان: ٢٠].

فَالحُجَّةُ اسْمٌ لِمَا يُحْتَجُّ بِهِ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ كَقَوْلِهِ: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٠].

فَإِنَّ الظَّالِمِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْكُمْ بِحُجَّةٍ بَاطِلَةٍ كَقَوْلِ المُشْرِكِينَ لَمَّا حُوِّلَتِ القِبْلَةُ إِلَى الكَعْبَةِ قَدْ عَادَ إِلَى قِبْلَتِكُمْ فَسَوْفَ يَعُودُ إِلَى مِلَّتِكُمْ، فَهَذِهِ حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ مِنَ الظَّالِمِينَ.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ بَعْدُ قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ [الشُّورَى: ١٦].

فَسَمَّاهَا حُجَّةً وَجَعَلَهَا دَاحِضَةً، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ هُمُ الكُفَّارُ مِنَ المُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ.

obeikandi.com

فَهُمْ يُحَاجُّونَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَقَالَ عَنِ النَّصَارَى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فَكَانَ الكُفَّارُ يُحَاجُّونَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، كَمَا يُؤْذُونَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

وَمُحَاجَّتُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَابِ الظُّلْمِ لَهُمْ وَالعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ وَقَوْلِ البَاطِلِ، فَأَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾.

أَيْ لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَظْلِمُونَا، وَتَعْتَدُوا عَلَيْنَا بِحُجَّتِكُمُ الدَّاحِضَةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّا نَحْنُ لَا نُحَاجُّكُمْ، وَنَدْعُوكُمْ إِلَى الحَقِّ بِالحُجَجِ الصَّحِيحَةِ.

فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فَأَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يُجَادِلَ أَهْلَ دَعْوَتِهِ مُطْلَقًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَهْلِ الكِتَابِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فَإِنَّ الظَّالِمَ بَاغٍ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ، فَيَجُوزُ أَنْ يُقَابَلَ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ العُقُوبَةِ، لَا يَجِبُ الِاقْتِصَارُ مَعَهُ عَلَى الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَظْلِمْ، فَإِنَّهُ لَا يُجَادَلُ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

وَأَهْلُ الكِتَابِ اسْمٌ يَتَنَاوَلُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، كَمَا فِي نَظَائِرِهِ فِي القُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيَةَ. وَقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البَيِّنَة: ١]، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَالظَّالِمُ يَكُونُ ظَالِمًا بِتَرْكِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ مِنَ الحَقِّ وَاتِّبَاعِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَالكَلَامِ بِلَا عِلْمٍ فَإِذَا ظَهَرَ لَهُ الحَقُّ فَعَنَدَ عَنْهُ(١) كَانَ ظَالِمًا.

وَذَلِكَ مِثْلُ الأَلَدِّ فِي الخِصَامِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤].

وَقَالَ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفَال: ٦].

وَقَالَ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عِمرَان: ٦٦].

❁❁❁

(١) أي: عاند في الأخذ به.

obeikandl.com